


مجلة إسلامية ثقافية

# رسالة النجف

العدد التاسع

نيسان - أيار - حزيران: 2007م 2007م

جامعة النجف الأشرف للعلوم الدينية — لبنان

# محتويات العدد


| | | |
|---|---|---|
| 1 | الافتتاحية | التحرير |
| 2 | مقام النبي شيت (ع) | تحقيق أحمد الموسوي |
| 3 | أحمد بن خاتون العاملي | الشيخ محمد تقي محمد جواد الفقيه |
| 4 | حقيقة الدعاء | الشيخ أحمد صمادي |
| 5 | الإمام زين العابدين والدعاء | د. محمد كامل سليمان |
| 6 | الدعاء روح ومعرفة | الشيخ علي ياغي |
| 7 | أيها المؤمن | سلاحك الدعاء د. يحيى الشامي |
| 8 | التقليد سيرة العقلاء | الشيخ مفيد الفقيه |
| 9 | الأقليات في الدولة الإسلامية | الشيخ حاتم إسماعيل |
| 10 | اللهجات العامية أصولها ومصادرها | د.حسن جعفر نور الدين |
| 11 | أضواء على طبيعة الخط العربي | د. محمد إسماعيل بغدادي |
| 12 | مخطوطات العامليين | الشيخ محمد تقي محمد جواد الفقيه |

# الافتتاحية

التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

سبق أن ذكرنا للقارئ الكريم في العدد السابق جانبًا من العقبات الشائكة والظروف الصعبة التي واجهتنا نتيجة للعدوان الآثم والحرب المدمّرة التي شنّها علينا العدو الإسرائيلي في شهر تموز من العام 2006، مدعومًا بالطاغوت العالمي وبعض الأنظمة العربية التابعة، مما ترك آثارًا سلبية كبيرة على طبيعة عملنا.

لكن وبحمد الله تعالى لم تستطع تلك الظروف رغم قساوتها أن تترك سوى آثار مؤقتة استطعنا تجاوزها بسرعة، وذلك بتوفيق من المولى عزّ وجل، وبعزيمة وجهود أسرة التحرير والكتّاب الأفاضل، وإخلاصهم (من ساهم في إغناء العدد وإعداده وإخراجه).

ونحن إذ نشكر الله سبحانه على ذلك أولاً، فإننا نتوجّه بالشكر ثانيًا إلى الكتّاب الأفاضل، إذ عملوا بحماس منقطع النظير، فزوّدونا بمقالاتهم القيّمة في فترة زمنية فاقت المتوقّع، رغم كل الظروف المحيطة بهم.

ولن نطيل على القارئ الكريم بالتمهيد للمادة التي يتضمّنها هذا العدد، ولكن نكتفي بالإشارة فقط إلى أنه كان من المقرّر أن يتناول ملف التحقيق بعض المقامات الدينية الموجودة في منطقة جبل عامل، إلا أنه حال دون ذلك صعوبات مختلفة.

ولذلك عدنا مرة أخرى إلى منطقة البقاع، لنعرض لمقام النبي شيث بن آدم (عليهما السلام)، والذي يعدّ الأب الثاني للبشرية بعد أبيه آدم (عليهما السلام)، وهو ما أشارت إليه روايات أهل بيت العصمة (عليهم السلام)، الأمر الذي يبيّن الخطأ الذي بنى عليه بعض المنظّرين المسلمين نظرياتهم في طبيعة البشر، معتمدين في ذلك على الاعتقاد بأن البشر هم من أبناء قابيل الذي قتل أخاه هابيل، فهم جميعًا من أبناء (القاتل). ولكن ذلك ضرب من المجازفة وغفلة عن الروايات التي بيّنت أنهم ليسوا من أبناء القاتل، ولا من أبناء القتيل، بل هم من أبناء نبي الله شيث (عليه السلام).

# مقام النبي شيت (ع)

تحقيق أحمد الموسوي

## مقام النبي شيث (ع)... هبة وبركة من الله



تحقيق: أحمد الموسوي

◊ د.حسن نصر الله: التاريخ يؤكّد وجود الضريح قبل 800 عام.

◊ عبد اللطيف الموسوي: 37 ألف زائر يزورونه في السنة.



أشرنا في عدد سابق إلى أن المنطقة الممتدة من جبل عامل إلى نواحي بعلبك قد عُرفت قبل الإسلام بأنها موطن لكثير من الأنبياء، وقد انتشر في ربوعها فعلاً الكثير من الأضرحة والمزارات المنسوبة إليهم، والعديد منها أحيط بالرعاية والاهتمام والتشييد والتجديد من قبل المؤمنين في كل جيل، إلا أن الأضرحة المعروفة لبعض هؤلاء الأنبياء (عليهم السلام) ليس من السهل إثبات نسبتها إليهم، اللهم إلا الشهرة والأقاويل المتوارثة والتي يعزّزها في النفوس ما يلمسه الناس من كرامات وألطاف واستجابة دعاء ببركة الاستشفاع بهم.

وعن ذلك يقول الباحث في هذا الشأن الدكتور حسن نصر الله:

إن تاريخ البشرية عرف بحسب المرويّات بعثةَ 124 ألف نبي، وأنه في زمن بني إسرائيل ربما كان يُقتل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس أكثر من نبي، حتى عُرفوا بقتلة الأنبياء، وقد ذكر القرآن الكريم أسماء لحوالى 24 نبيًا ومرسلاً، وليس من دليل على وجود أضرحة لهم سوى ما ورد في بعض الكتب القديمة، مثل الذي ورد حول النبي شيث، وقد ذكر الهروي في أحد كتبه الذي يعود إلى 800 عام أنه زار المقام حيث يعتقد أن النبي شيث مدفون، وهي الرواية القديمة الوحيدة التي تذكر هذا، إضافة إلى رواية ثانية تقول إنه مدفون في مغارة في سرنديب في الهند، أما الفقيه عبد الغني النابلسي فقد تحدّث عن المقام في كتابه "حلّة الذهب الإبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز" ويذكر فيه أنه زاره عام 1689م.



## وقفية.. ولوحة

ومن الشواهد أيضًا على قِدَم وجود مقام (النبي شيث) حيث هو الآن في البلدة التي سُمّيت باسمه، ما يقوله رئيس بلديتها السيد عبد اللطيف الموسوي من أن هناك وقفيةً تنصّ على أن أحد المحسنين وهو محمد العُصي، قد جعل قسمًا كبيرًا من أراضيه وقفًا لمقام النبي شيث، ويعود تاريخ هذه الوثيقة التاريخية (الوقفية) إلى عام 518 للهجرة أي إلى تسع مئة سنة، في القرن الثاني عشر الميلادي.

في حين أنه لم يكن معروفًا كيف كان شكل المقام طوال القرون الماضية، إلا أن لوحةً حجرية لا تزال موجودة حتى اليوم، وتُعتبر من الدلائل ذات الأهمية على قِدَم المقام، نُقش عليها النص التالي:

"إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر، لمّا كانت سنة اثنتا عشرة بعد الألف من شهر ربيع الأول، شيّد مقام النبي المبارك، مُحسنة ابنة (...) غفر الله لها ولوالديها"

ووفقًا لهذا الأثر، فإن المقام شُيّد منذ أكثر من 400 سنة، بتبرّع من فاعلةِ خير، ليشهد المقام بعد ذلك أعمالَ توسعة وتحسين عِدّة، أهمّها ما قام به الحاج حسن الهمداني منذ أكثر من مئتي سنة، وهو الجدّ الأول لعائلة الحاج حسن البقاعية حاليًا، فقد قام بإعادة تأهيله وتوسيعه، بعد أن رأى النبي شيث في منامه يطلب منه ذلك، وقد

استدعى هذا الأمر من الحاج حسن الإقامة مع عائلته قرب المقام لرعايته، ما جعل المنطقة من حوله مع السنين تشدّ إليها الرحال طلبًا للبركة، وبعضهم قصدها للإقامة والسكن، فتكوّنت لاحقًا ونشأت بلدة سميت باسم النبي شيث، ومن أبرز عائلاتها اليوم آل الموسوي، وآل شكر، وآل الحلباوي.

## الحداثة والتراث



واستمرّ المقام على حالته التي استحدثت منذ مئتي عام إلى العام 1995م، حيث ارتأى أهالي البلدة توسعة المقام المبارك، لاستيعاب عدد الزوار الذين كانوا يتزايدون سنويًا، من لبنان وخارجه، فقام بعض المحسنين منهم بالتبرّع بتكلفة التوسعة وإضافة أقسام جديدة إلى المقام، ومع الفائدة العميمة التي حصلت بالتوسعة الأخيرة، إلا أنها حصلت على حساب الأهمية التاريخية والتراثية للمقام، بسوره الحجري القديم الذي هُدم، وبقبّته الخضراء التي بناها الحرافشة والتي أزيلت، وبالقبور الدوارس التي كانت في باحته والتي دُفنت تحت البناء الجديد، ودُفنت معها الشواهد التي كانت تُفصح بمدوّناته عن جانب من تاريخ المنطقة، وأوّل من سكن من العائلات، كآل الحاج حسن وآل حرفوش وآل بيضون، ثم آل شكر وآل الموسوي.

فكل ذلك اندثر،وكان ذا قيمة تاريخية وتراثية عظيمة، تمّ التفريط بها فلم يُحسن أهل البلدة التوفيق بين الحفاظ عليها وبين الحاجة إلى أعمال التوسعة الضرورية، لاستيعاب تكاثر الزوّار سنة بعد سنة، فضاعت بذلك مسحة حضارية أثرية، كانت تعتبر من أبرز معالم هذه البلدة، ولم يبقَ من معالم المقام القديم سوى المئذنة الحجرية التي تقف بتواضع إلى جنب المئذنة الحديثة التي تعلوها ببضعة أمتار من التكلّف بالصنعة الهندسية.

## زوّار وأدعية

ويتألف المقام اليوم بعد إنجاز التوسعة الأخيرة من قاعة كبيرة في الطابق الأرضي بمساحة تقارب 400 متر مربّع، تضمّ ضريح النبي شيث الذي يبلغ طوله 30 مترًا، وعرضه خمسة أمتار، وهو مسوّر بقفص من حديد، وقاعة أخرى للصلاة، ومذبح للأضاحي والنذور مع قاعة للطعام ومكان لتجهيز الموتى، ومغاسل للوضوء، وفوق الطابق الأرضي ثلاثة طوابق أخرى، الأول منها هو قاعة كبيرة للندوات والنشاطات الثقافية التي يُشرف عليها نادي الإمام المنتظر، ويشغل الطابق الثاني مكاتب للبلدية ويتمّ حاليًا استكمال تجهيز الطابق الثالث لاستخدامه كمعهد لتعليم النساء الحِرَف اليدوية.



أما بخصوص طول الضريح حتى بلغ ثلاثين مترًا بعرض خمسة أمتار، فلعلّ مردّ ذلك إلى أن موضع القبر الشريف الذي هو ضمن هذه المساحة، خيف أن تطأه أقدام الزوّار، خاصة في المناسبات الدينية، التي يكثر فيها القادمون وطالبوا الحاجة بالدعاء عند القبر المبارك.



وكما يقول رئيس البلدية عبد اللطيف الموسوي، فإن عدد زوّار الضريح يبلغ قرابة 37 ألف زائر في السنة، منهم 25 ألفًا من داخل لبنان، و12 ألفًا من مختلف البلاد والديار العربية والإسلامية، وخاصة من إيران ودول الخليج العربي.

وتبقى أبواب المزار مفتوحة كل يوم، لاستقبالهم على مدار السنة لا سيما في المناسبات المباركة وفي مقدمتها ولادة الإمام المهدي (عجل الله فرجه) في النصف من شعبان، إذ يتحوّل المقام وما حوله إلى مناسبة عظيمة يتلاقى فيها المؤمنون من كل أنحاء الأرض حول قبره الشريف، حيث تتعدّد الألسن باللغات واللهجات وترتفع الأصوات بالأدعية والصلوات لقضاء الحوائج وشفاء المرضى، ونصرة المظلومين والمجاهدين في كل مكان.

## كرامات

وفي الذاكرة التي يتوارثها أبناء البلدة العديد من الروايات والوقائع التي تشهد على ما للنبي شيث (عليه السلام) من قدسية ومقام رفيع، وتسجّل الكرامات العديدة، وتُثبتُ وجود القبر الشريف حيث هو اليوم، ومنها ما يرويه السيد علي حسين الموسوي عن أبيه عن جدّه، من أن الأخير كان يذكر أمام أولاده رؤية الأنوار تهبط على الضريح الشريف تصديقًا لقوله تعالى **{نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ}**-سورة التحريم: من الآية8.

ويروي الحاج مهدي عباس الموسوي أن جدلاً دار ذات مرّة في الأربعينات من القرن الماضي بين أحد الزوّار من خارج بلدة النبي شيث وبين عدد من الأهالي حول حقيقة وجود قبر النبي شيث (عليه السلام) في البلدة، وانتهى النقاش بالاتفاق على الصعود إلى أعلى المئذنة ورمي إبريق فخّار منها إلى الأرض، فإذا لم ينكسر، كان ذلك دليلاً وإثباتًا على صحة وجود القبر، وهكذا كان، فصعد أحدهم إلى المئذنة ورمى الإبريق، فضرب الأرض ولم ينكسر، أمام جمع من الناس في ذلك الحين.

ومما يذكره السيد عباس حسين الموسوي، عن أبيه المرحوم السيد حسين عباس، من أن مختار بلدة "طليا" القريبة من بلدة النبي شيث، وهو من النصارى، كان معتادًا على تقديم نذر للنبي شيث (عليه السلام) عبارة عن ذبيحة كل عام، فجاء ذات سنة وكان بصحبته رئيس مخفر القرية، الذي تناول الخمر أثناء الغداء خلسة في حضرة النبي شيث، وخلال العودة هبّت ريح عاتية رفعت رئيس المخفر وحده عن حصانه ورمته أرضًا، فأصيب بجروح عميقة وكسور وبقي زمنًا طويلاً في علاج من آلام مبرحة.

وتشهد الحاجة أم أحمد، وهي من بلدة النبي شيث، أنها حين كانت تسكن في بيروت منذ حوالى الثلاثين عامًا، كانت تسكن في جوار بيتها السيدة فضة جلوان، وهي مسيحية من بلدة القليعة الجنوبية، وكانت هذه المرأة عقيمًا، فأشارت عليها الحاجة أم أحمد أن تنذر نذرًا للنبي شيث، ففعلت، وفي السنة نفسها حملت، لكن ظروف الحرب الأهلية حينذاك فرّقت بينهما ولم تعد تسمع شيئًا من أخبارها.

## بركة وحماية

وهناك غير ذلك من الروايات الكثيرة عن كرامات آتاها الله نبيه شيث (عليه السلام)، تدلّل على عظيم المقام الذي خصّه به، وأهالي البلدة الذين يسكنون تحت جناحه،يردّون الفضل في نجاة بلدتهم من المحن والفتن التي عصفت بلبنان خلال الحرب الأهلية إلى البركة التي حباهم الله بها، بوجود ضريح النبي شيث(عليه السلام)، كما يردّون الفضل إلى هذه البركة في تجنيب بلدتهم الدمار أثناء العدوان الإسرائيلي الأخير في تموز الماضي، إذ كان يتوقّع لهذه البلدة، لما فيها من مجاهدين، أن تدمّر تدميرًا كاملاً على غرار قرى وبلدات أخرى، وهذا ما لم يحصل بفضل الله وبركة ضريح النبي المبارك.

## من فضائل النبي شيث (ص)

وفي بطون الكتب القديمة مرويات كثيرة عن النبي شيث (عليه السلام)، وكيف بدأت البشرية بالتكاثر به، فبعد أن قتل قابيل أخاه هابيل، وهب الله لآدم (عليه السلام) شيث ومعناه هبة الله، وزوّجه حوراء من الجنة، وبهما تناسل وتكاثر البشر، وأن الله تعالى أودعه علم الأسماء، وأنزل عليه (خمسين صحيفة)، كما في الحديث الشريف، وكما تحفظ تلك الكتب والمرويات العديد من الأقوال والحكم المنسوبة إلى النبي شيث (عليه السلام)، ومنها:

القلوب الفارغة موكلة بالشهوات.

نِعْمَ المؤدّب التجارب.

الحكمة تورث صاحبها التواضع، وبها يعدل السلطان، وتجتمع الآراء، ويزداد الورع، ويظهر الأخيار، وتقلّ الذنوب.

تصبّر في الأمور فإنّ الاستعجال يُسرع الغضب.

## زيارة النبي شيث

السلام عليك يا نبيّ الله شيث، يا هبة الله، السلام عليك أيها النبي الكريم،والعبد الصالح، السلام عليك يا ابن آدم ووصيه ووارث علمه، والقائم مقامه، السلام عليك يا ابن حواء أم البشر على السواء، السلام عليك يا أبا الأنبياء، السلام عليك يا أوّل الأوصياء، السلام عليك يا محلّ الرجاء، السلام عليك يا من خاطبك جبرائيل أن الله خصك منه بأمر جليل، السلام عليك وعلى أنبياء الله المرسلين، السلام عليك وعلى عباد الله الصالحين، السلام عليك وعلى ملائكة الله المقربين ورحمة الله وبركاته.

سيدي ومولاي، يا نبي الله شيث، أنا زائرك، ولائذ بقبرك، أسألك أن تشفع لي عند الله، في قضاء حاجتي، فقد قصدتك لعلمي أن لك عند الله شفاعة مقبولة، ومقامًا محمودًا، فبحقّ من اختصك بأمره، وارتضاك لسرّه، وبالشأن الذي لك عند الله بينك وبينه، سلِ الله تعالى في نجاح طلبتي، وإجابة دعوتي.

اللهم صلِّ على محمد وآل محمد الأخيار، في آناء الليل وأطراف النهار،ولا تدع لي يا ربّ في هذا المشهد المعظّم والمحل المكرّم، حاجة من حوائج الدنيا والآخرة، لك فيها رضىً، ولي فيها صلاح، إلا قضيتها ويسّرتها، يا أرحم الراحمين.

سأل طاووس اليماني الباقر (عليه السلام):

(متى هلك ثلث الناس؟ فقال (عليه السلام): يا أبا عبد الرحمن، لم يمت ثلث الناس قط، يا شيخ أردت أن تقول: متى هلك رُبع الناس؟ وذلك يوم قَتل قابيل هابيل، كانوا أربعة: آدم، وحواء، وهابيل، وقابيل، فهلك رُبعهم، قال: فأيهما كان أبا الناس؟ القاتل أو المقتول؟ قال: لا واحد منهما، أبوهم شيث)[1].

* * *

وعن أبي ذر في حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله):

## أن الله تعالى أنزل على شيث (عليه السلام) خمسين صحيفة[2]

* * *

وعن الصادق (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال:

(أوصى آدم إلى شيث وهو هبة الله ابن آدم، وأوصى شيث إلى ابنه شبان، وهو ابن "نزلة" الحوراء التي أنزلها الله على آدم من الجنة فزوجها ابنه شيثًا... الخبر)[3].

* * *

وروى في البحار بالإسناد إلى الصدوق بإسناده إلى وهب:

(لما حضر آدم الوفاة أوصى إلى شيث وحفر لآدم في غار في أبي قيس يقال له غار الكنز، فلم يزل آدم عليه السلام في ذلك الغار حتى كان زمن الغرق استخرجه نوح عليه السلام في تابوت وجعله معه في السفينة)[4].

---

[1] - بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ج 10 ص 156.

[2] - المصدر السابق: ج 11 ص 32.

[3] - المصدر السابق: ج 11 ص 225.

[4] - المصدر السابق: ج 11 ص 267.

# أحمد بن خاتون العاملي

الشيخ محمد تقي محمد جواد الفقيه

## شخصية وكتاب



الشيخ محمد تقي الشيخ محمد جواد الفقيه *

يحدّد لنا التراث – بشكل عام – هوية الأمة وحضارتها، في جميع ميادين النشاط الإنساني، وهو على أنواعه المتكثّرة ما يهمّنا منه على وجه التحديد – في موضوعنا هذا – هو التراث الفكري والعلمي بشكل عام، لأنهما نقطة الانطلاق في بناء الحضارة.

من هنا، فإن أرض جبل عامل، رغم مساحتها الضيّقة، امتازت على مدى قرون بعطائها الفكري والثقافي والعلمي، فأعطى علماؤها ومفكروها الكثير في ميادين الفقه والأدب والعلوم الأخرى، فإن ما أعطوه أكثر بكثير من مساحة أرضهم التي درجوا عليها (جبل عامل)، حتى قال فيهم السيد الخوانساري في كتابه روضات الجنات في ترجمته للشهيد الأول:

((خرج منها (يعني من قرى جبل عامل) من علماء الشيعة الإمامية ما ينيف على خمس مجموعهم, مع أن بلادهم بالنسبة إلى باقي البلدان أقل من عشر العشر))[1].

وأوضح مثل على ذلك السلسلة المباركة الممتدة من الشهيد الأول، بل ما قبله، إلى عصرنا الحاضر، وذلك غني عن التعريف، بالإضافة إلى ذلك فإن الأمر لم يقتصر على علوم الفقه والأصول فحسب، بل تخطّاه إلى العلوم الأخرى، كالذي أبدعه فكر الشيخ البهائي (قدس سره) في علوم الرياضيات والهندسة والهيئة والعلوم الغريبة بالإضافة للفقه والأصول, وكذلك ما قدّمه للإنسانية المرحوم حسن كامل الصباح.

لقد عانى سكان جبل عامل، منذ قرون ولا يزالون، عدم الاستقرار الأمني والاقتصادي، مما حدا بهم إلى الهجرة، فكان نصيب علمائنا أعلى الله درجاتهم الهجرة إلى الشام والعراق في طلب العلم، ولكن بعد مقتل الشهيد الثاني استقر الكثيرون منهم في بلاد إيران، ولعل هذا ما عناه السيد الأمين (قدس سره) بقوله في جبل عامل بأنه "مضيعة العلماء"، حيث قال في ترجمته أحدَ علماء آل خاتون الذي كان وزيرًا في الهند بقوله: (وهكذا كان العامليّون يهاجرون من مضيعة العلماء جبل عامل إلى إيران والهند وغيرها, وينالون بها مشيخة الإسلام, والقضاء, والوزارة, وغيرها)[2].

وليس غريبًا ما قاله صاحب الروضات، ففي فترة وجيزة خرج من قرية عيناثا وحدها (إحدى قرانا المنكوبة اليوم) عدد كبير من العلماء الأعلام، حمل أكثرهم لقبًا واحدًا اختصر أسمائهم، وهو لقب (ابن خاتون العيناثي)، حيث إن كل من انتهى نسبه إلى كلمة خاتون، سمّي بابن خاتون.

والكلام هنا عن أحد الخاتونيين المغمورين، وعن كتابه (السوانح المرضية والنوافح العطرية)، الذي عثر عليه العلامة السيد أحمد الحسيني، أثناء الفهرسة لمكتبة الإمام الصادق في أردكان، وقد حصلت على صورة لكامل المخطوطة.

## من هم آل خاتون، وما سبب تسميتهم بذلك؟

قال السيد محسن الأمين (قدس سره):

آل خاتون بيت علم قديم في جبل عامل، أصلهم من (إِمْيَه)، قرية قرب ارشاف، هي اليوم خراب، وفيها تلقّبوا بخاتون، وكانت - أي القرية - ملكا لآل السبيتي، فاشتراها منهم أهل دبل بثمن بخس، ثم سكنوا عيناثا ثم جويا، وهم من آل جمال الدين ابن خاتون، وقيل كان لقبهم بيت البوريني.

ونقل العالم المؤرخ الشيخ علي بن محمد السبيتي العاملي الكفراوي[3]في كتابه" الجوهر المجرد في شرح قصيدة علي بك الأسعد"، أنه اطّلع على خط أحد قدمائهم، الذي يذكر فيه أنهم بيت الزاهد المعروفين ببيت أبو شامه، ويقال لهم بيت الشامي تصحيفا.

وخاتون لفظ غير عربي، معناه السيدة الجليلة، وهو اسم أم لهم نسبوا إليها، وسبب ذلك على ما ذكره الشيخ علي السبيتي في كتابه المذكور آنفًا، أنه كان أحد أجدادهم من العلماء في قرية إمية، وأن السلطان الغوري لما طاف البلاد، نزل على مرج دبل، المعروف بسهل حزور، جنوب إمية، في فم الوادي المسمى بوادي العيون، من بلاد بشارة القبلية، فسأل عن صاحب إمية، فقيل له: شيخ علم عنده تلاميذ, فطلب حضوره فامتنع الشيخ عن الحضور واعتذر بأنه درويش منقطع في بيته، وكان الملك ذا علم ومعرفة وعنده بعض التأله، فعظم الشيخ في عينه وسار إليه حتى دخل بنفسه في موضع تدريسه، فتأدب وأظهر الخشوع، وطلب منه إكمال الدرس، ثم اعتذر له الشيخ عن عدم الحضور بالحديث: (إذا رأيتم العلماء بباب الملوك فبئس العلماء وبئس الملوك، وإذا رأيتم الملوك بباب العلماء فنعم الملوك ونعم العلماء)، فنبل الشيخ عند الملك، وزوّجه ابنته الملقبة بالخاتون، فسمي بنوه من يومئذ بني الخاتون.

إلى أن قال: وخرج منهم في عيناثا جماعة كثيرة من أكابر العلماء، قلّما اتفق خروج أمثالهم من قطر واحد وبلد واحد في أعصار متتالية، وإليهم كانت الرحلة، وقصدهم ناصر البويهي لطلب العلم من العراق إلى عيناثا مستجيزا كما ستعرف، ثم توطنوا في الأعصار الأخيرة قرية جويا من جبل عامل[4].

أقول: ومن هؤلاء:

## أحمد بن محمد بن نعمة الله بن أحمد ابن خاتون العاملي

هو الشيخ الذي تقدم ذكر كتابه (السوانح المرضية). وقد عملت جاهدًا للبحث عن ترجمة متطابقة مع ما قاله عن نفسه في مقدمة كتابه المذكور ولكن دون جدوى، فهناك عدة من علماء آل خاتون يحملون نفس الاسم ويفترقون من جهات أخرى.

منهم: الشيخ أبو العباس احمد بن خاتون العاملي العيناثي, وهو معاصر للمحقق الكركي.

وأما صاحبنا فقد ألف كتابه بعد وفاة المحقق بقرن تقريبًا.

ومنهم: الشيخ احمد بن خاتون العاملي العيناثي. وهو معاصر لصاحب المعالم وقد جرت بينهما مباحثات أدت إلى الغيظ والمباعدة.

وأما صاحبنا فيفهم من كلامه في مقدمة كتابه أنه سافر إلى اليمن في أول شبابه وذلك سنة 1020 للهجرة أي بعد وفاة صاحب المعالم بتسع سنوات. مما يعني أنه كان صبيًا في حياة صاحب المعالم قدس سره.

ومنهم من كان قبل الشهيد الثاني, وهو واضح.

ثم أنه قال في مقدمة كتابه أنه سافر إلى اليمن في عنفوان شبابه, بينما لم أجد أحدًا في التراجم من آل خاتون سافر إلى اليمن, وهذه جهة افتراق مع جميع علماء آل خاتون المترجمين.

## إطلالة على: السوانح المرضية والنوافح العطرية

الكتاب عبارة عن كشكول كبير مؤلف من 545 صفحة تقريبًا, بدأ فيه المؤلف بشكوى حاله، وما آل إليه أمره في عنفوان شبابه بعد وفاة الشيخ جمال الدين محمد بن الشيخ أحمد الشهير بابن خاتون العاملي, والذي عبر عنه بقوله:

(دُهيت بفقد من كنت أعتقد أنه عين حياتي وأرجع إليه في مآربي ومهماتي).

ثم أشار إلى أنه توجه إلى صنعاء اليمن في سنة 1020هـ، بعدما جرى عليه من الهموم, وهناك التقى بنادرة الوزراء جعفر باشا، حيث رفع مقامه وزاد في إجلاله وإكرامه, وجعله في المنزلة العلية.

وقد فتحت له مكتبة هذا الباشا، التي حوت من التفاسير الثمينة والأحاديث الشريفة، ما يعجز عن وصفه اللسان، ويقصر عن بيانه أهل البيان، فانتخب منها ما عذب وطاب، وكان نتيجة ذلك حسب الظاهر بعض ما في هذا الكتاب.

وقد نقل في هذا الكشكول عن الكثير من المصادر العلمية، ككتب التفسير والفلسفة والحكمة والكلام والتاريخ والأدب والعلوم الغريبة، مع تعليق له في بعض الأحيان.

إلا أن ما شدني إليه هو نقله عن بعض علماء جبل عامل، كالشيخ البهائي ووالده، والمحقق الكركي، والبازوري، والشيخ حسن صاحب المعالم، والشيخ حسن الحانيني، وجعفر الجزيني، والحتاتي المصري العاملي, وبعض علماء آل خاتون، وغيرهم كما ستعرف، علمًا أن بعض هؤلاء العامليين فعلاً لا نعرف عنهم شيئًا, أو وصلتنا ترجمة محدودة جدًا عنهم.

## نماذج من الكتاب

ومن الأمور الأدبية اللطيفة التي ذكرت في الكتاب ما نصه:

عن بعضهم في الاقتباس من الفقه:

| | |
|---|---|
| والحق أن الزرع للزارع<br>في جنة كالقمر الطالع | أنبت وردًا ناظرًا ناظري<br>فلِم منعتم شفتي لثمه |

أجابه الشيخ حسين بن عبد الصمد طاب ثراه[5]:

| | |
|---|---|
| لأن أهل الحب في حيّنا | عبيدنا في شرعنا الواسع |
| والعبد لا ملك له عندنا | فزرعه للسيد المانع |

وأجابه الشيخ حسن[6] روض الله ضريحه:

| | |
|---|---|
| لأن أهل الحب باعوا به | نفوسهم والفخر للبائع |
| والعبد محجور عليه ولا | أرى بحكم الشرع من مانع |

وأجابه علامة زمانه شيخنا البهائي قدس الله روحه:

| | |
|---|---|
| لما زرعت الورد في وجنة | قد أحدقت بالثمر اليانع |
| والورد لا يخفى له شوكة | فامتنع اللثم على الزارع |

وأجاب جعفر الجزيني[7]:

| | |
|---|---|
| لأنه يحرسه بحاجب[8] | يرمي بقوس دافع نافع |
| وسهمه من لَحْظِه صائب | فامتنع اللثم على الزارع |

إلى أن قال: وأجابه العبد الراجي عفو ربه الغني أحمد بن محمد الخاتوني المكي[9]:

| | |
|---|---|
| قد حيّر الألباب في حسنه | لما بدا كالسناء[10] الساطع |
| فأظهر الشكر وزال الحجا | فأنتج الحجر على الزارع |

ونقل شعرًا للشيخ حسن صاحب المعالم مطلعه:

| | |
|---|---|
| فؤادي ظاعن اثر النياق | وجسمي قاطن ارض العراق |
| ومن عجب الزمان حياة شخص | ترحل بعضه والبعض باقي |

ومنه ما نقله من شعر الشيخ الحانيني، يرثي فيه الشيخ أبي علي حيدر وأخيه الشيخ منصور، وَلدَي الحاج علي، أولاد علي صغير، حين بلغه قتلهما في ساحل صور سنة 1022هـ حيث قال:

| | |
|---|---|
| فؤادي من السمل الطوال به سمر | وصدري به للحزن قد قدح الجمر |
| وعيناي في الخدين تسكب أدمعًا | يفيض بها من كل جارحة نهـر[11] |

وهي قصيدة طويلة.

كما نقل قصيدة طويلة في الوعظ للشيخ علي بن أحمد بن نعمة الله بن خاتون (ره).

كذلك للشيخ أحمد بن نعمة الله بن خاتون العاملي قصيدة طويلة أيضًا.

وقصيدة طويلة مؤلفة من تسعين بيتًا للشيخ محمد الحتاتي المصري الصفوي العاملي يمدح بها مصطفى أفندي عند وِرْدِه إلى حلب قاصدًا دمشق في أوائل ربيع الأول سنة 1041هـ. قال في مستهلها:

| | |
|---|---|
| برق الحمى قلبت قلب الفتى | بنار أشواق تذيب القوى |
| جدّدت ثوب الوجد من بعد ما | قد كان مخلوقًا بكفّ النوى |

كما نقل قصيدة طويلة للمرحوم الشيخ إبراهيم بن الشيخ إبراهيم بن فخر الدين البازوري العاملي رحمهم الله تعالى, مطلعها:

| | |
|---|---|
| عسى تسعد المشتاق بالوصل زينب | ويبري كلومًا من جفاها كلامها |
| وأمسي قرير العين بالوصل مرّة | ويجلو ظلام الليل عني ابتسامها |

هذه نبذة من الكتاب نقلتها في هذه العجالة وأسأل الله أن يوفق لتحقيقه ونشره في القريب العاجل إحياءً لتراث علمائنا الأعلام قدس الله أسرارهم.

---

[1] - روضات الجنات ج 7 ص 5

[2] - أعيان الشيعة ج10ص10.

[3] - نسبة إلى "كفرا"، وهي قرية من قرى جبل عامل قريبة من تبنين.

[4] - أعيان الشيعة ج 2 ص 584.

[5] - هو الشيخ عز الدين حسين بن عبد الصمد العاملي الحارثي الهمداني, والد الشيخ البهائي (ره).

[6] - هو الشيخ أبو منصور حسن بن الشهيد الثاني, المعروف بصاحب المعالم.

[7] - شخصية عاملية من جزين لم أجد له أي ترجمة في كتب التراجم التي توفرت.

[8] - هكذا في الأصل، ولعل الأوفق بالوزن (حاجب).

[9] - المراد به هو المترجم له أي المؤلف.

[10] - هكذا في الأصل، ولعل الأوفق بالوزن (مثل السنا).

[11] - هذه القصة من الأمور الجديدة التي لم نعثر عليها في كتب التاريخ أو التراجم العاملية.

## الهوامش

* مدير مركز الفقيه العاملي لإحياء التراث، مقيم في قم المقدسة.

# حقيقة الدعاء

الشيخ أحمد صمادي

الشيخ أحمد صمادي*

الدعاء لغة: النداء، تقول دعوت فلانًا، إذا ناديته، ومنه قوله تعالى: **{لا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً}**(1).

وفي الاصطلاح: طلب الأدنى للفعل من الأعلى على جهة الخضوع والاستكانة(2).

ودعاء العبدِ ربَّه: هو الرغبة فيما عنده من الخير، والابتهال إليه بسؤال حوائج الدنيا والآخرة، وطلب الرحمة والفيض، وتهيئة الأسباب والعوامل الخارجة عن دائرة قدرة الداعي من الله عز وجل الذي بيده مقاليد الأمور.

والذي يوضّح ويبيّن حقيقة الدعاء ما أطلق عليه في القرآن وفي كلمات النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم من أوصاف، فالمستفاد منها أنه: سلاح المؤمن، وشفاء كل داء، ومفتاح الحاجات، ووسيلة الرغبات، وأنه باب فتحه الله لعباده للعبور من خلاله إلى خزائن رحمته، حتى في أقل الأمور وأحقرها، فقد ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله): (سلوا الله عز وجل ما بدا لكم من حوائجكم، حتى شسع النّعل فإنه إن لم ييسّره لم يتيسّر)(3).

بل هو من أقوى الأسباب التي تدفع البلاء وتردّ القضاء وقد أبرم إبرامًا، وهو تكريم من قِبل الله تعالى لعباده، حيث أذن لهم في دعائه، وسمح لهم بمخاطبته ومناجاته، رحمة بهم، فضمن لهم الإجابة قائلاً **{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}**، وقال سبحانه: **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}**(4) وقال عز وجل: **{أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ}**(5) وقال سبحانه: **{قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ}**(6).

ويكفي في أهميته وعظمته، وصفه بالعبادة، بل أفضلها، فعن الباقر (عليه السلام): (أفضل العبادة الدعاء)(7)، بل في النبويّ وصف الدعاء بمخ العبادة(8)، لأن العبودية تتجلّى في الدعاء بأروع صورها، وهذا ما يفسّر لنا كون الدعاء أفضل العبادة، وأنه مُخّها، فمحلّ الدعاء من العبادات - لا سيما الصلاة - محلّ المخّ واللبّ والجوهر، لأن الداعي الخاضع والخاشع لربه يُقابل المُستكبر والمُستغني عن الدعاء كما أشارت إليه الآية الكريمة **{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}**(9)، حيث وصف تعالى المستغني عن الدعاء بأنه مستكبر ومستغن عن العبادة، مهدّدًا بإدخاله جهنم صاغرًا ذليلاً.

ويؤكد ذلك ما رواه الكليني عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن حماد بن عيسى، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (سمعته يقول: ادع، ولا تَقلْ قد فرغ من الأمر، فإن الدعاء هو العبادة، إن الله عز وجل يقول: **{إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}**)(10).

والسرّ في ذلك أن الدعاء يشترك مع العبادة في حقيقة واحدة، هي إظهار الخشوع والخضوع، واتصال الإنسان من خلالهما بخالقه جلّ وعلا، وفي كليهما يعترف العبد بالافتقار إلى ربه، وكما أن العبادة تسمو بنفس العبد وتصله بربه، فكذا الدعاء حيث تَعرُج روح الداعي لتتصل بخالقها وربّها، كما ويؤكد الدعاء على افتقار العبد وحاجته إلى مولاه وعدم استغنائه عنه، وأن الله تعالى هو المنعم والرازق، وبيده الحياة والموت، والصحة والسلامة، والسلطان... فهو مالك كل شيء **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}**(11).

## آداب الدعاء

اهتمت الشرائع والأديان، لا سيما الإسلام، بالدعاء، وخصّصت لكل وقت من النهار والليل، ولكل يوم من أيام الأسبوع والشهر والسنة أدعية خاصة، بل لكل حال من الأحوال، ولكل فعل ومطلب من مطالب الدنيا والآخرة دعاءًا خاصًا، وجعلت للدعاء شروطًا وآدابًا تُساعد على استجابة الدعاء.

## فمن تلك الآداب

1- الطهارة لقول الصادق (عليه السلام): (يا مَسمع، ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غمّ من غموم الدنيا، أن يتوضأ ثم يدخل مسجده، فيركع ركعتين، فيدعو الله فيهما)(12).

2- الشروع بالبسملة، لقوله (صلى الله عليه وآله): (لا يُردّ دعاء أوّله بسم الله الرحمن الرحيم)(13).

3 - افتتاح الدعاء وختمه بالصلاة على النبي وآله. لقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (كل دعاء محجوب عن السماء حتى يُصلّى على محمد وآله)(14).

وروي عن أبي عبد الله (عليه السلام): (لا يزال الدعاء محجوبًا حتى يصلي على محمد وآل محمد)(15).

وعنه (عليه السلام): (من دعا ولم يذكر النبي صلى الله عليه وآله رفرف الدعاء على رأسه، فإذا ذكر النبي صلى الله عليه وآله رُفع الدعاء)(16).

وعنه (عليه السلام): (من كانت له إلى الله عز وجل حاجة، فليبدأ بالصلاة على محمد وآله، ثم يسأل حاجته، ثم يختم بالصلاة على محمد وآل محمد، فإنّ الله عز وجل أكرم من أن يقبل الطرفين ويدع الوسط)(17).

ولذا نجد الإمام السجاد (عليه السلام) قد جعل الصلاة على النبي وآله مفتاحًا لأدعيته في الصحيفة السجادية، بل في بعضها جعل الصلاة في أول الدعاء وفي آخره وفي وسطه، كالنبوي الشريف الذي جاء فيه: (لا تجعلوني كقدح الراكب، فإن الراكب يملأ قدحه فيشربه إذا شاء, اجعلوني في أول الدعاء وفي آخره وفي وسطه)(18). أي إن الراكب لا يذكر الماء إلا إذا عطش واضطر إليه، فيلتفت إليه ويشرب منه، وأما في سائر الأوقات فهو غافل عنه.

4- التحميد والثناء على الله تعالى قبل الدعاء، لقول أبي عبد الله (عليه السلام): (إذا طلب أحدكم الحاجة، فليُثنِ على ربه وليمدحه، فإن الرجل إذا طلب الحاجة من السلطان، هيّأ له من الكلام أحسن ما يقدر عليه، فإذا طلبتم الحاجة فمجّدوا الله العزيز الجبّار وامدحوه وأثنوا عليه)(19).

وينبغي الثناء على الله تعالى بأسمائه الحسنى، لقوله سبحانه وتعالى: **{وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}**(20) بل ينبغي للداعي أن يختار ما يناسب مطلوبه فإذا كان يطلب الرزق فيختار: يا رازق يا واهب يا جواد يا منعم يا معطي... وإذا كان يرجو المغفرة فيقول: يا غفار يا تواب يا رؤوف يا عطوف... وهكذا.

وفي بعض الروايات: يُجزي من الثناء: اللهم أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، وأنت العزيز الحكيم)(21).

5- التعميم في الدعاء، لقول الصادق (عليه السلام): (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إذا دعا أحدكم فليعمّ، فإنه أوجب للدعاء)(22).

بل في بعض الروايات التحديد بأربعين رجلاً، قال عمر بن يزيد: سمعت الصادق (عليه السلام) يقول: (من قدّم أربعين رجلاً من إخوانه قبل أن يدعو لنفسه، استجيب له فيهم وفي نفسه)(23).

6- تسمية و بثّ الحوائج إلى الله تعالى، فإن الله تعالى يعلم حاجة العبد وما يريد، بل هو أقرب إليه من حبل الوريد، ولكنه سبحانه يُحبّ أن تُبَث إليه الحوائج وتُسمّى بين يديه تعالى، فعن الإمام الصادق (عليه السلام): (إن الله تبارك وتعالى يعلم ما يريد العبد إذا دعاه، لكنه يُحِب أن تُبثّ إليه الحوائج، فإذا دعوت فسم حاجتك).

وفي آخر عنه (عليه السلام) قال: (إن الله عز وجل يعلم حاجتك وما تريد، ولكن يُحب أن تبثّ إليه الحوائج) (24).

7- التوسل بالنبي وآله، لقول النبي (صلى الله عليه وآله) بحق الأئمة (عليهم السلام): "وبهم يستجاب الدعاء" (25)، وقد عقد السيد البروجردي في جامع أحاديث الشيعة بابًا خاصًا في أن من توسّل إلى الله تبارك وتعالى بمحمد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين استجاب له وذكر عدة روايات(26).

8- إقبال الداعي على ربه بقلبه حال الدعاء، لقول الصادق (عليه السلام): (إن الله عز وجل لا يستجيب دعاءًا بظهر قلب ساه، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثم استيقن بالإجابة)(27).

9- تقديم الصدقة قبل الدعاء، لقول الصادق (عليه السلام): (كان أبي إذا طلب الحاجة، طلبها عند زوال الشمس، فإذا أراد ذلك قدّم شيئًا فتصدّق به)(28).

10- التضرّع ورفع اليدين حال الدعاء، لقول النبي (صلى الله عليه وآله): (إن الله ليستحي من العبد أن يرفع إليه يديه فيردّهما خائبتين)(29)، وبه فسّرت آية: **{فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ}**(30)، وقد سئل الرضا (عليه السلام) عن سبب رفع اليدين في الدعاء فقال: (التضرّع هو رفع اليدين لأن رفع اليدين يدلّ على حال الاستكانة، وعلامة العبودية والتذلّل لله تعالى)(31).

11- الإسرار بالدعاء لقوله تعالى: **{ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً}**(32).

وعن الرضا (عليه السلام): (دعوة تُخفيها أفضل عند الله من سبعين دعوة تظهرها)(33).

12- تعجيل الدعاء في وقت الرخاء: فإن الناس على مختلف مشاربهم ومذاهبهم، حتى المشرك والوثني، تجده وبدافع فطري متأصل في وجوده، يتوجّه إلى الله تعالى بمجرد أن يحس بضَر أو شدة أو محنة أو مصيبة وبلاء ولا يجد من يُنجيه، ينقطع إلى ربه وخالقه، فإذا نجّاه تعالى وأذاقه من رحمته نسي وأعرض ونأى بجانبه وكأنّ شيئًا لم يحصل معه كما تشير الآيات القرآنية:

التي منها قوله تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ}(34).

وقوله عز وجل: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إلى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً}(35).

وقوله سبحانه: {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}(36).

و قوله جل وعلا: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إذا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إذا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ}(37).

**يتبع =**

---

1- سورة النور: 63.

2 - عدة الداعي لابن فهد الحلي /9/مكتبة وجداني / قم/ بتصرف.

3 - مكارم الأخلاق 270 / نشر مكتبة الشريف الرضي قم ط6.

4 - سورة غافر، من الآية60، وسورة البقرة:186.

5- سورة النمل: 62.

6- سورة الفرقان: 77.

7- وسائل الشيعة 7/ 30 ح1 مؤسسة آل البيت قم باب اختيار الدعاء على غيره...

8- المصدر السابق: 7/ 27 ح9 باب استحباب الإكثار من الدعاء.

9- سورة غافر:60.

10- الكافي2/ 467 ح4 دار الكتب الإسلامية طهران ط4 تحقيق الغفاري.

11- سورة فاطر:15.

12- مستدرك الوسائل6/ 319 مؤسسة آل البيت/ بيروت1/6903 نقلا عن تفسير العياشي.

13- المصدر السابق: 5/ 304.

14- وسائل الشيعة 7/ 96ح16/8838.

15- الكافي 2/ 491 باب الصلاة على النبي وأهل بيته ح1.

16- المصدر السابق، نفس الباب، ح2.

17- المصدر السابق، نفس الباب، ح216.

18- المصدر السابق: 2/ 492.

19- المصدر السابق: 2/ 485 باب الثناء قبل الدعاء ح6.

20- سورة الأعراف: 180.

21- الكافي 2/ 503/ باب التحميد والتمجيد /ح6.

22- الكافي 2/4487/ باب العموم في الدعاء/ ح1.

23- وسائل الشيعة 7/ /118 ح3/8896.

24- الكافي 2/ 476 ح1 / باب الأوقات والحالات التي ترجى فيها الإجابة.

25- آمالي الشيخ الطوسي 441 / نشر دار الثقافة للطباعة والنشر قم1414).

26- جامع أحاديث الشيعة 15 / 244 / باب 11 مطبعة مهر قم 1409.

27-الكافي 2/ 473 باب الإقبال على الدعاء ح1.

28-الكافي 2 / 478 ح7 باب الأوقات والحالات التي ترجى فيها الإجابة.

29- بحار 90/ 365 ح11.

30- سورة المؤمنون: 76.

31- وسائل الشيعة 7/ 48 ح6/8684.

32- سورة الأعراف: 55.

33- الكافي 2/ 476 باب إخفاء الدعاء ح1.

34- سورة فصلت: 51.

35 - سورة الإسراء: 67.

36- سورة يونس: 12.

37- سورة الروم: 33.

## تتمة مقال = حقيقة الدعاء

فلذا من الآداب أن يتذكر الإنسان ربه ويدعوه في حال الرّخاء حتى يتعرّف عليه في حال الشدّة بل إننا محتاجون إلى رحمته سبحانه في كل الأحوال والأوقات والاقتصار على الدعاء في حال الشّدة يحرمنا من تلك الرحمة وذلك الفضل.

فعن النبي (صلى الله عليه وآله)، في وصيته للفضل بن العباس: (تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة (38).

وعن أبي جعفر (عليه السلام) أنه كان يقول: (ينبغي للمؤمن أن يكون دعاؤه في الرخاء نحوًا من دعائه في الشدة ليس إذا أعطي فَتَر)(39).

13- الدعاء عند استشعار رقة القلب وحصول الإخلاص والخوف من الله تعالى لقول الصادق (عليه السلام): (إذا رقّ أحدكم فليدعُ فإن القلب لا يرق حتى يخلص)(40).

14- تكرار الدعاء وعدم القنوط من عدم الإجابة لقول الصادق (عليه السلام): (لا يزال المؤمن بخير ورجاء رحمة من الله عز وجل ما لم يستعجل فيقنط ويترك الدعاء)(41).

15- الاجتماع في الدعاء: لقول الصادق (عليه السلام): (كان أبي عليه السلام إذا أحزبه أمر(42) - وفي بعض الروايات أحزنه أمر(43)- جمع النساء والصبيان ثم دعا، وأمّنوا).

وفي بعض الروايات عن الصادق (عليه السلام): (ما اجتمع أربعة قط على أمر فدعوا الله تعالى إلا تفرقوا عن إجابة)، بل في بعضها عنه (عليه السلام) كون عدد المجتمعين للدعاء أربعين أو يكرر الدعاء أربعين مرة(44).

16- التنزّه عن الحرام: لما روي من أن موسى (عليه السلام) رأى رجلاً يتضرع إلى الله تعالى تضرعًا عظيمًا ويدعو رافعًا يديه ويبتهل فأوحى إليه الله تعالى: لو فعل كذا وكذا لما استجيب دعاؤه، لأن في بطنه حرامًا(45).

17- ختم الدعاء بقول: ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله لما روي عن أبي عبد الله (عليه السلام): (ما من رجل دعا فختم دعاءه بقول: ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله إلا أجيبت حاجته(46).

18- مسح الوجه والرأس بعد الدعاء: لما روي عن الصادق (عليه السلام) قال: ما أبرز عبد يده إلى الله العزيز الجبار عز وجل إلا استحيا الله عز اسمه أن يردها صفرًا حتى يجعل فيها من فضل رحمته ما يشاء، فإذا دعا أحدكم فلا يرد يده حتى يمسح على رأسه ووجهه(47).

وفي حديث الدعاء: فإذا فرغ من الدعاء مسح وجهه بيديه وفيه إشارة إلى أن كفيه ملئتا من البركات السماوية والأنوار الإلهية فهو يفيض منها على وجهه الذي هو أشرف الأعضاء(48).

## موانع استجابة الدعاء

قد يدعو الإنسان ليل نهار ولا يُستجاب له لوجود ما يحبس الدعاء ويحجبه فلا بد من إزالة الموانع التي تحبس الدعاء، وقد ذكرت الروايات الشريفة المنقولة عن النبي وأهل بيته جملة من تلك الحواجب تندرج تحت معصية الله و الجرأة عليه ومخالفة أوامره تعالى، ففي الحديث المروي عن الصادق (عليه السلام): (... أما إنكم لو أطعتموه فيما أمر به، ثم دعوتموه لأجابكم، ولكن تخالفونه وتعصونه فلا يجيبكم)(49).

وقد أشار الإمام علي (عليه السلام) في دعاء كميل إلى هذه الموانع التي تردّ الدعاء حيث قال (عليه السلام): (اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء) وفصّلها الإمام السجاد (عليه السلام) في حديث طويل بيّن فيه آثار الذنوب فقال: (... والذنوب التي ترد الدعاء: 1- سوء النية، 2 - وخبث السريرة، 3- والنفاق مع الإخوان، 4- وترك

التصديق بالإجابة، 5 - وتأخير الصلوات المفروضات حتى تذهب أوقاتها، 6- وترك التقرب إلى الله عز وجل بالبر والصدقة، 7- واستعمال البذاء والفحش في القول)(50).

وقد نصَّت بعض الروايات على ذنوب أخرى.

8- منها أكل الحرام، فعن النبي (صلى الله عليه وآله): (من أحبّ أن يُستجاب دعاؤه فليطيّب مطعمه ومكسبه)(51).

وعنه (صلى الله عليه وآله) في جواب من قال له: أحب أن يُستجاب دعائي قال (صلى الله عليه وآله): (طهّر مأكلك ولا تُدخل بطنك الحرام)(52).

وفي الحديث القدسي: (فمنك الدعاء وعليّ الإجابة فلا تُحجب عني دعوة إلا دعوة آكل الحرام)(53).

9- ومنها عقوق الوالدين، فعن الصادق (عليه السلام): (والتي ترد الدعاء وتُظلم الهواء عقوق الوالدين)(54).

10- ومنها قطيعة الرحم، روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (قطيعة الرحم تحجب الدعاء)(55).

11- ومنها ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال محمد عمر بن عرفة: سمعت أبا الحسن (عليه السلام) يقول: (لتأمرنّ بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم)(56).

ومنها من يقتني في بيته: 12- خمرًا، 13- أو دفًّا، 14- أو طنبورًا، 15- أو نردًا: لما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله): (لا تدخل الملائكة بيتًا فيه خمر أو دف أو طنبور أو نرد، ولا يُستجاب دعاؤهم، وترفع عنهم البركة)(57).

وهناك جماعة لا يستجاب دعاؤهم وهم: 16- العريف الشاعر الذي ينشد بالباطل، 17- والعشّار، 18- والشرطي، 19- و صاحب العرطبة، 20- وصاحب الكوبة لما روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، قال: (يا نوف، إياك أن تكون عشّارًا أو شاعرًا(58) أو شرطيا(59) أو عريفًا(60) أو صاحب عرطبة وهي الطنبور، أو صاحب كوبة وهو الطبل(61)، فإن نبي الله خرج ذات ليلة فنظر إلى السماء، فقال: أما إنها الساعة التي لا ترد فيها دعوة إلا دعوة عريف، أو دعوة شاعر، أو دعوة عاشر أو شرطي، أو صاحب عرطبة، أو صاحب كوبة(62).

21- ومنها المظلوم الذي تحمَّل ظلم غيره، روي عن الصادق (عليه السلام): (قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا أجيب دعوة مظلوم دعاني في مظلمة ظلمها، ولأحد عنده مثل تلك المظلمة)(63)، بل روي عن الصادق (عليه السلام) أن متحمِّل مظالم المخلوقين مردود الدعوة(64).

.

**يتبع =**

---

39- المصدر السابق 7/ 61ح1/8726.

40- المصدر السابق 7/ 72 ح1، وقد عقد في الوسائل بابا لذلك (استحباب الدعاء عند رقة القلب 7/ 72).

41- المصدر السابق 7/ 55ح3/8708.

42- الدعوات للراوندي 29/ نشر مدرسة الإمام المهدي قم ط1 قم.

43- مكارم الأخلاق 274 الفصل الأول في فضل الدعاء و كيفيته منشورات الشريف الرضي ط6.

44- عدة الداعي لابن فهد الحلي 145.

45- الدعوات للراوندي 24/ منشورات مدرسة الإمام المهدي قم ط1 قم.

46- ثواب الأعمال للصدوق/ 9 منشورات الشريف الرضي قم.

47- مكارم الأخلاق للطبرسي 269.

48- مجمع البحرين لطريحي 4/ 199 مادة مسح.

49- مستدرك الوسائل5/ 213.

50- معاني الأخبار للشيخ الصدوق/ 217 /مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين قم ط1379هـ.

51- عدة الداعي لابن فهد الحلي / 128 /باب في بيان أقوام لا يستجاب دعاؤهم.

52- نفس المصدر السابق.

53- نفس المصدر السابق.

54- الكافي 2/ 448 باب في تفسير الذنوب ح1.

55- مستدرك الوسائل15/ 185 ح 14/17954.

56- الكافي 5/ 56 باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ح3.

57- مستدرك الوسائل6/ 319.

58- حمل على الذي ينشد بالباطل.

59- حمل على الذي يظلم المؤمنين في الدولة الظالمة.

60- العريف هو: القيم بأمور القبيلة أو الجماعة من الناس يلي أمورهم ويتعرّف الأمير من خلاله على أحوالهم: لسان العرب 9/ 154 مادة عرف دار إحياء التراث العربي.

61- العرطبة هي الطنبور والعود وهي من آلات اللهو فارسية معربة والكوبة هي الطبل وفسرتا بالعكس: مجمع البحرين 3/ 158 / مادة عرطب مكتب نشر الثقافة الإسلامية ط2.

62- وسائل الشيعة مؤسسة آل البيت 17 / 315 / ح 122637 /2.

63- وسائل الشيعة 7/ / 146ح1/8968.

64- مفتاح الجنات للسيد الأمين 1 / 11 / الأعلمي بيروت.

## تتمة مقال = حقيقة الدعاء

## دعوات لا تستجاب

ورد في الأخبار أن مجموعة من الدعوات لا يستجيبها الله تعالى

فعن النبي (صلى الله عليه وآله): إن أصنافًا من أمتي لا يُستجاب لهم دعاؤهم:

1- رجل يدعو على والديه.

2- ورجل يدعو على غريم ذهب له بمال فلم يكتب عليه ولم يُشهد عليه.

3- ورجل يدعو على امرأته وقد جعل الله عز وجل تخلية سبيلها بيده -أي المرأة المؤذية لزوجها-.

4- ورجل يقعد في بيته ويقول: (ربِّ ارزقني ولا يخرج ولا يطلب الرزق فيقول الله عز وجل له: عبدي ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب والضرب في الأرض بجوارح صحيحة فتكون قد أعذرت فيما بيني وبينك في الطلب لإتباع أمري ولكيلا تكون كَلاًّ على أهلك، فإن شئتُ رزقتك وإن شئت قتّرت عليك، وأنت غير معذور عندي).

5- ورجل رزقه الله مالاً كثيرًا فأنفقه ثم أقبل يدعو يا ربِّ ارزقني فيقول الله عز وجل: (ألم أرزقك رزقًا واسعًا فهلا اقتصدت فيه كما أمرتك ولم تسرف وقد نهيتك عن الإسراف).

6- ورجل يدعو في قطيعة رحم(65).

7- ورجل يدعو على جاره، روي عن الصادق (عليه السلام): (أخشى أن نكون كأحد الثلاثة الذين لا يُستجاب لهم دعوة: رجل أعطاه الله مالاً فأنفقه في غير حقه، ثم قال: اللهم ارزقني فلا يستجاب له، ورجل يدعو على امرأته أن يريحه منها وقد جعل الله عز وجل أمرها إليه، ورجل يدعو على جاره وقد جعل الله عز وجل له السبيل إلى أن يتحول عن جواره ويبيع داره)(66).

8- ورجل يدعو على ذي رحم(67).

9- و رجل دفع ماله إلى سفيه(68).

10- بل مطلق سؤال ما لا يحل: لقول الأمير (عليه السلام): (يا صاحب الدعاء لا تسأل ما لا يحل)(69).

11- ورجل أبق مملوكه ثلاث مرات ولم يبعه(70).

12- ورجل مر بحائط مائل وهو يقبل إليه ولم يسرع المشي حتى سقط عليه(71).

## دعوات تنفتح لها أبواب السماء

مما لا شك فيه أن هناك أوقاتًا وأماكن وحالات خاصة تنفتح لها أبواب السماء ويستنزل فيها الرحمة كما يستفاد من روايات النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم، فمن تلك الأوقات:

1- يوم الجمعة، ففي النبوي الشريف: (إن يوم الجمعة سيد الأيام، يضاعف الله عز وجل فيه الحسنات، ويمحو فيه السيئات، ويرفع فيه الدرجات، ويستجيب فيه الدعوات)(72)، وأكدت الروايات على ساعة خاصة من يوم الجمعة فعن النبي (صلى الله عليه وآله): (إن في يوم الجمعة لَسَاعة لا يحال بين الدعاء وبين الإجابة)(73) وقد حُدِّدت هذه الساعة في بعض الروايات ما بين فراغ الإمام من الخطبة إلى أن تستوي الصفوف (74)، وجاء في بعضها الآخر أنها آخر ساعة من النهار إلى غروب الشمس(75)، وروي (أن تلك الساعة هي إذا غاب نصف القرص وبقي نصفه)(76) والمراد من الساعة البرهة الزمنية وليست الساعة المعهودة كما لا يخفى.

2- ومنها ليلة الجمعة، روي عن النبي (صلى الله عليه وآله): (أن الله تبارك وتعالى ينزل ملكًا إلى السماء الدنيا كل ليلة في الثلث الأخير، وليلة الجمعة في أول الليل فيأمره فينادى هل من سائل فأعطيه سؤله؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ يا طالب الخير أقبل يا طالب الشر أقصر)(77).

3- ومنها ما بين نصف الليل إلى الثلث الباقي منه قال عبدة السابوري: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): (إن الناس يروون عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: إن في الليل لساعة لا يدعو فيها عبد مؤمن بدعوة إلا استجيب له؟ قال: نعم. قلت: متى هي؟ قال: ما بين نصف الليل إلى الثلث الباقي. قلت: ليلة من الليالي أو كل ليلة؟ فقال: كل ليلة)(78).

وفي بعض الروايات أنها السدس الأول من النصف الثاني(79).

4- ومنها وقت السحر فعن النبي (صلى الله عليه وآله): (خير وقت دعوتم الله عز وجل فيه الأسحار)(80) وهو الثلث الأخير من الليل وأفضله القريب من الفجر.

5- ومنها وقت زوال الشمس بمقدار أربع ركعات مع تأنٍ وتمهل، فعن الصادق (عليه السلام): (إذا زالت الشمس فُتحت أبواب السماء، وأبواب الجنان، وقُضيت الحوائج العظام، فقيل له (عليه السلام): من أي وقت؟ قال (عليه السلام): مقدار ما يصلي الرجل أربع ركعات مُترسلاً)(81) (82).

6- ومنها ما قبل شروق الشمس وقبل غروبها، فعن الصادق (عليه السلام): في قوله تعالى **{وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ}**(الرعد من الآية15) قال: هو الدعاء قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وهي ساعة إجابة(83).

7- ومنها: ليلة القدر كما لا يخفى والروايات في فضلها متواترة.

8- ومنها ليلة الفطر والأضحى وأول ليلة من رجب والنصف من شعبان لما روي عن الكاظم (عليه السلام): قال: (كان علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول: يعجبني أن يفرغ الرجل نفسه أربع ليال: ليلة الفطر وليلة الأضحى، وأول ليلة من رجب، وليلة النصف من شعبان)(84).

9- ومنها ليلة العاشر من ذي القعدة: لما روي عن الرسول (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (في ذي القعدة ليلة مباركة هي ليلة عشر ينظر الله إلى عباده المؤمنين فيها بالرحمة)(85).

10- ومنها الدعاء بين العشاءين، فقد روي من دعا بينهما لم يُرد دعاؤه(86).

11- ومنها بعد العشاء الآخرة، فعن النبي (صلى الله عليه وآله): (من كان له حاجة فليطلبها في العشاء الآخرة فإنها لم يعطها أحد من الأمم قبلكم يعنى: العشاء الآخرة)(87).

12- ومنها يوم الأربعاء بين الظهر والعصر، روى جابر أن النبي (صلى الله عليه وآله) أُستجيب دعاؤه على الأحزاب الأربعاء بين الظهر والعصر ثم قال: (فما نزل بي أمر غائظ فتوجهت في تلك الساعة إلا وجدت الإجابة (88)، والغائظ والغيظ: الغضب المحيط بالكبد.

13- ومنها ما بين الطلوعين، روي عن الأمير (عليه السلام): (أجيبوا داعي الله، واطلبوا الرزق فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، فإنه أسرع في طلب الرزق من الضرب في الأرض، وهي الساعة التي يقسم فيها الرزق بين عباده... توكلوا على الله عند ركعتي الفجر إذا صليتموها، ففيها تعطوا الرغائب)(89).

14- ومنها الدعاء في الوتر وبعد الفجر وبعد الظهر وبعد المغرب، روي عن الصادق (عليه السلام): (يُستجاب الدعاء في أربعة مواطن: في الوتر وبعد الفجر وبعد الظهر وبعد المغرب)(90).

وكذا غيرها من الليالي والأيام المباركة كليالي ولادة المعصومين النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، وليلة المبعث ويومه، وليلة عرفة، وليلة الغدير، وليلة النصف من رجب، وليلة الرغائب هي أوّل ليلة جمعة من شهر رجب، وغيرها من الأوقات المباركة...

**يتبع =**

---

- 65- الكافي 5/ 67 ح 1 باب دخول الصوفية على أبي عبد الله (عليه السلام)....
- 66- الكافي 2/ 510 ح 2/ باب الدعاء على العدو.
- 67- وسائل الشيعة 7/ 127ح7/8913.
- 68- المبسوط للشيخ الطوسي 8/ 173 المكتبة المرتضوية لإحياء آثار الجعفرية. تعليق:محمد الباقر البهبودي.
- 69- وسائل الشيعة 7/ 83 ح 10/8791.
- 70- الخصال للشيخ الصدوق، ص 299، منشورات جماعة المدرسين في قم تعليق الغفاري ط1403هـ.
- 71- المصدر السابق نفسه.
- 72- الكافي 3/ 414 باب فضل الجمعة وليلته ح5.
- 73- مستدرك الوسائل6/ 68 4/6453 ح.
- 74- نفس المصدر ح 3/6452.
- 75- نفس المصدر.
- 76- مصباح المتهجد للشيخ الطوسي 399 / مؤسسة فقه الشيعة / بيروت ط1.
- 77- عدة الداعي لابن فهد الحلي/ 40.
- 78- وسائل الشيعة 7/ 70ح3/8752.
- 79- عدة الداعي لابن فهد الحلي/ 39.
- 80- الكافي 2/ 477 باب الأوقات والحالات التي ترجى فيها الاجابةح6.
- 81- قال في مجمع البحرين ترسل في قراءته إذا تمهل فيها ولم يعجل /2/177 مادة رسل.
- 82- وسائل الشيعة 7/ 66ح8/8742.
- 83- الكافي 2/ 522 باب القول عند الإصباح والإمساء ح1.
- 84- جامع أحاديث الشيعة 6 / 312 ح 16/5215.
- 85- جامع أحاديث الشيعة 15 / 280 ح 12/925.
- 86- نفس المصدر.

- 87- عدة الداعي لابن فهد الحلي/ 39.
- 88- عدة الداعي لابن فهد الحلي/ 38.
- 89- وسائل الشيعة 7/ 68ح1/8746.
- 90- الكافي 2/ 477 باب الأوقات والحالات التي ترجى فيها الاجابةح2.

## تتمة مقال = حقيقة الدعاء

وأما الأماكن والبقاع الخاصة التي تنفتح فيها أبواب السماء:

1- المساجد عامة، روي عن الصادق (عليه السلام): عليكم بإتيان المساجد، فإنها بيوت الله في الأرض من أتاها متطهرا طهره الله من ذنوبه وكُتب من زواره فأكثروا فيها الصلاة والدعاء(91).

2- والمسجد الحرام فعن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: (أكثروا من الصلاة والدعاء في هذا المسجد أما إن لكل عبد رزقًا يجاز إليه جوازًا)(92)، وهناك عدة مواطن في مكة وغيرها يرجى فيها استجابة الدعاء، منها: الميزاب، ومقام إبراهيم (عليه السلام)، والحجر الأسود، وبين المقام والباب والمستجار(93) والركن اليماني والحطيم(94) وفي جوف الكعبة، وعند بئر زمزم، وعلى الصفا والمروة، وعند الجمرات الثلاث، وفي المزدلفة، وفي عرفة، وعند المشعر الحرام كما هو واضح من الروايات وكلام الفقهاء في مناسك الحج.

3- ومسجد النبي (صلى الله عليه وآله) لا سيما بين الضريح الشريف والمنبر، قال الصادق (عليه السلام) لمعاوية بن عمار: إذا فرغت من الدعاء عند قبر النبي (صلى الله عليه وآله) فائت المنبر فامسحه بيدك وخذ برمانتيه، وهما السفلاوان، وامسح عينيك ووجهك به فإنه يقال: إنه شفاء للعين، وقم عنده فاحمد الله واثن عليه وسل حاجتك فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على ترعة من ترع الجنة، والترعة هي الباب الصغير... (95).

4- ومسجد الكوفة، روى يحي بن عبد الله الكاهلي عن الصادق (عليه السلام) قال: جاء رجل إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه وهو في مسجد الكوفة فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فردّ عليه، فقال: جعلت فداك إني أردت المسجد الأقصى فأردت أن أسلم عليك وأودعك، فقال له: وأي شيء أردت بذلك؟ فقال: الفضل جعلت فداك، قال: فبع راحلتك وكلّ زادك وصلِّ في هذا المسجد فإن الصلاة المكتوبة فيه حجة مبرورة والنافلة عمرة مبرورة والبركة فيه على اثني عشر ميلاً للمؤمنين... منه سارت سفينة نوح... وصلى فيه سبعون نبيًا وسبعون وصيًا أنا أحدهم وقال بيده في صدره(96)، ما دعا فيه مكروب بمسألة في حاجة من الحوائج إلا أجابه الله وفرج عنه كربته(97).

5- ومسجد السهلة، عن الصادق (عليه السلام): قال: بالكوفة مسجد يقال له، مسجد السهلة لو أن عمّي زيدًا أتاه فصلى فيه واستجار الله لأجاره عشرين سنة، فيه مناخ الراكب وبيت إدريس النبي (عليه السلام) وما أتاه مكروب قط فصلى فيه بين العشائين ودعا الله إلا فرج الله كربته(98).

6- ومشاهد الأئمة صلوات الله عليهم لا سيما تحت قبة الحسين (عليه السلام)، فعن النبي (صلى الله عليه وآله): ألا وإن الإجابة تحت قبته(99).

ونقل شعيب العقرقوفي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قلت له (عليه السلام) من أتى قبر الحسين (عليه السلام) ما له من الثواب والأجر جعلت فداك، قال: يا شعيب ما صلى عنده أحد الصلاة إلا قبلها الله منه، ولا دعا أحد عنده دعوة إلا استجيبت له عاجلة و آجلة، فقلت: جعلت فداك زدني فيه، فقال: يا شعيب أيسر ما يقال لزائر الحسين بن علي (عليه السلام): قد غفر لك يا عبد الله فاستأنف عملاً جديدًا(100).

7- وأخرج الخطيب البغدادي في تاريخه بإسناده عن أحمد بن جعفر ابن حمدان القطيعي قال: سمعت الحسن بن إبراهيم أبا علي الخلال (شيخ الحنابلة في عصره) يقول: ما همّني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر فتوسلت به إلا سهل الله تعالى لي ما أحبّ(101).

8- قال ابن حبان في ترجمة الإمام الرضا (عليه السلام): ما حلّت بي شدة في وقت مقامي بطوس، فزرت قبر علي بن موسى الرضا صلوات الله على جده وعليه ودعوت الله بإزالتها عنّي إلا استجيب لي، وزالت عنّي تلك الشدة، وهذا شيء جربته مرارًا، فوجدته كذلك، أماتنا الله على محبة المصطفى وأهل بيته صلى الله عليه وسلم الله عليه وعليهم أجمعين (102)، وكذا غيرها من المشاهد المباركة للأولياء والصلحاء.

وأما الأعمال والحالات التي تنفتح لها أبواب السماء بالإجابة:

1- فعند قراءة القرآن. 2- والآذان. 3- ونزول الغيث. 4- والتقاء الصفين. 5- والزحف. 6- ودعوة المظلوم.

فعن أمير المؤمنين (عليه السلام): اغتنموا الدعاء عند خمسة مواطن: عند قراءة القرآن، وعند الأذان، وعند نزول الغيث، وعند التقاء الصفين للشهادة، وعند دعوة المظلوم، فإنها ليس لها حجاب دون العرش(103).

7- وعند هبوب الريح. 8- وزوال الأفياء. 9- وعند نزول أول قطرة من دم القتيل المؤمن، فعن الصادق (عليه السلام): اطلبوا الدعاء في أربع ساعات: عند هبوب الرياح وزوال الأفياء(104) ونزول القطر وأول قطرة من دم القتيل المؤمن فإن أبواب السماء تفتح عند هذه الأشياء(105).

10- والدعاء بعد الصلاة المكتوبة. روي عن الأمير (عليه السلام): قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: من أدّى لله مكتوبة فله في أثرها دعوة مستجابة(106).

وفي بعض الروايات ان الدعاء بعد الفريضة أفضل من الصلاة نفلا فعن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: الدعاء بعد الفريضة، أفضل من الصلاة نفلاً(107).

بل في بعضها أن الدعاء بعدها أفضل من قراءة القرآن فقد سئل الصادق (عليه السلام): عن رجلين دخلا المسجد في وقت واحد وافتتحا الصلاة في وقت واحد فكان دعاء أحدهما أكثر، وكان قرآن الآخر أكثر، أيهما أفضل؟ قال: كلّ فيه فضل، وكلّ حَسن قيل: قد علمنا ذلك ولكن أردنا ان نعلم أيهما أفضل؟ قال: الدعاء أفضل، أما سمعت الله عز وجل يقول: **{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)** (غافر:60), هي العبادة، وهي أفضل(108).

11- ودعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب فعن أبي جعفر (عليه السلام): قال: اوسع دعوة وأسرع إجابة دعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب(109) وعنه (عليه السلام): أسرع الدعاء نجاحًا للإجابة دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب (110).

12- الدعاء على لسان الغير لما روي من انه تعالى أوحى إلى موسى (عليه السلام): ادعني على لسان لم تعصني به، فقال: يا رب أنّى لي بذلك؟ قال: ادعني على لسان غيرك(111).

13- دعاء المُتَخَتِّم بالأحجار الكريمة كالعقيق والفيروزج لقول الصادق (عليه السلام) ما رُفعت كفّ إلى الله أحبّ من كفٍ فيها عقيق(112)، ولقوله (عليه السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): قال الله سبحانه إني لأستحي من عبد يرفع يده وفيها خاتم فصّه فيروزج فأردُّها خائبة(113).

14- الدعاء حال السجود: فعن الصادق (عليه السلام): قال: أقرب ما يكون العبد من ربّه إذا دعا ربه وهو ساجد(114).

وفي بعض الروايات الحث على الدعاء في سجدة الشكر بعد فريضة المغرب: فعن جهم بن أبي جهم قال: رأيت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام وقد سجد بعد الثلاث الركعات من المغرب فقلت له: جعلت فداك رأيتك سجدت بعد الثلاث فقال ورأيتني؟ فقلت نعم قال: فلا تدعها فإن الدعاء فيها مستجاب(115).

15- ومنها دعوة الحاج.

16- ودعوة الغازي في سبيل الله.

17- والمريض فعن الصادق (عليه السلام): ثلاثة دعوتهم مستجابة: الحاج، فانظروا كيف تخلفونه. والغازي في سبيل الله، فانظروا كيف تخلفونه. والمريض فلا تغيظوه(116).

18- ودعوة الإمام المقسط.

19- ودعوة الولد الصالح لوالديه(117).

20- ومنها دعاء الوالد على ولده.

21- والمظلوم على من ظلمه.

22- والمعتمر حتى يرجع.

23- والصائم حتى يفطر (فعن الصادق (عليه السلام)، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أربعة لا تُردّ لهم دعوة حتى تفتح لهم أبواب السماء وتصير إلى العرش: الوالد على ولده، والمظلوم على من ظلمه، والمعتمر حتى يرجع، والصائم حتى يفطر(118).

24- ومنها دعوة المضطر لقوله تعالى: **{أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ}**.

وعن النبي (صلى الله عليه وآله): ادعوك يا مجيب دعوة المضطر(119).

25- ومنها الدعاء بين الأذان والإقامة، فعن النبي (صلى الله عليه وآله): الدعاء بين الأذان والإقامة لا يُردّ (120).

## توقيفية الدعاء المأثور

تميّزت مدرسة أهل البيت صلوات الله عليهم بتراثها الدعائي ومنهلها العذب الذي ضم عيون اللآلئ والدُرر، حتى ورد عنهم صلوات الله عليهم أدعية لكل شيء ولكل وقت من الليل والنهار ولكل يوم من أيام الأسبوع والشهر والسنة، بل لكل حال من الأحوال ولكل مطلب من مطالب الدنيا والآخرة، ولذا أوْلَوا صلوات الله عليهم الدعاء عناية خاصة، وكان وسيلة لنشر تعاليم ومفاهيم الإسلام وتلقين أصول العقيدة كما هو واضح من أدعيتهم صلوات الله عليهم لا سيما أدعية الإمام السجاد في الصحيفة السجّادية، فكانت آية في البلاغة والفصاحة والأدب الرفيع، فتَلتذّ بها القلوب قبل الأسماع لتغذي النفس وتهذبها وتحلّق بالروح إلى عالم الملكوت فتعيش مع خالقها مطمئنة في رحابه الطاهرة.

و قد بذل أصحاب الأئمة (عليهم السلام) جهدهم لنقل تلك الأدعية و اتعب علماؤنا أنفسهم في حفظها وجمعها حتى وصلت إلينا وصارت في متناول أيدينا فجزاهم الله خير الجزاء.

ومن الملاحظ من خلال مراجعة بعض الروايات أن الأدعية المأثورة والتي يرجى منها آثارٌ خاصة ينبغي التوقف والاقتصار على ما ورد منها عن النبي وآله من دون أدنى زيادة أو نقصان.

1- فمن تلك الروايات: ما روي عن الصادق (عليه السلام) أنه قال: ستصيبكم شبهة، فتبقون بلا علم يرى ولا إمام هدى، لا ينجو منها إلا من دعا بدعاء الغريق. قلت: كيف دعاء الغريق؟ قال: تقول: يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك فقلت أقول: يا مقلب القلوب والأبصار ثبّت قلبي على دينك.

فقال: ان الله عز وجل مقلب القلوب والأبصار، ولكن قل كما أقول لك: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك(121).

2- ومنها ما رواه إسماعيل بن الفضل قال: سالت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل **{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا}**(طـه من الآية130)، فقال: فريضة على كل مسلم ان يقول قبل طلوع الشمس عشر مرات، وقبل غروبها عشر مرات: «لا اله الا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت بيده الخير، وهو على كل شيء قدير».

قال: فقلت: لا اله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت ويميت ويحيي، فقال: يا هذا، لا شك في أن الله يحيي ويميت ويميت ويحيي، ولكن قل كما أقول(122).

3- ومنها ما رواه العلاء بن كامل قال: (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: **{وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ}**. عند المساء: لا الله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت ويميت ويحيي، وهو على كل شيء قدير. قال: قلت: بيده الخير. قال: إن بيده الخير، ولكن قل كما أقول لك عشر مرات وأعوذ بالله السميع العليم حين تطلع الشمس وحين تغرب عشر مرات)(123)، وغيرها من الروايات(124).

ولا يخفى ما في دلالة هذه الروايات على أن الأدعية المأثورة عنهم صلوات الله عليهم توقيفية، وعلينا أن نتعبد بها كما وردت بألفاظها الخاصة من دون أدنى تغيير في كلماتها حتى تحقق أثرها الروحي المرجو منها.

هذا وهناك مباحث أخرى ترتبط بموضوع الدعاء لا تسعها هذه الرسالة وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

## انتهى

---

- 91- بحار الأنوار للمجلسي 80/ 384.
- 92- الكافي 3/ 414 باب فضل الصلاة في المسجد الحرام... ح4.
- 93- وهو الحائط المقابل لباب الكعبة دون الركن اليماني بقليل وهو الذي استجارت إليه فاطمة بنت أسد (عليه السلام) عند ولادة أمير المؤمنين (عليه السلام) فانشق لها الحائط من عند المستجار ويسمى الملتزم لان الطائف يلتزمه في الشوط السابع - الموسوعة الفقهية الميسرة محمد علي الأنصاري /61/ مجمع الفكر الإسلامي قم.
- 94- وهو ما بين البيت والحجر الأسود وعن الصادق (ع) أنه أفضل بقعة على وجه الأرض الوسائل 5/ 275 ح7.

- 95- وسائل الشيعة 14/ 345 ح1/19358. 96- وفي نسخة التهذيب3/ 251 ح9/689 قال بيده على صدره.
- 97- الكافي 3/ 492 باب فضل المسجد الأعظم في الكوفة... ح3.
- 98- الكافي 3/ 495 باب مسجد السهلة ح3.
- 99- وسائل الشيعة 14/ 352ح16/19581.
- 100- كامل الزيارات لابن قولويه /436 مؤسسة نشر الفقاهة قم ط1.
- 101- المناقب لابن شهر آشوب 3/422، المطبعة الحيدرية / النجف الأشرف ط 1376
- 102- الثقاة للحافظ ابن حبان 8/457، مؤسسة الكتب الثقافية، وهو من أهم مصادر رجال الحديث عند السنة.
- 103- الأمالي للشيخ الصدوق 171.
- 104- الفيء الظل وجمعه الأفياء يقال: فاء الفيء إذا تحول عن جهة الغداة، العين للخليل بن احمد الفراهيدي وفي تعليقة الكافي فاء الظل يفيء رجع من جانب المغرب إلى جانب المشرق.
- 105- الكافي 2/ 476 باب الأوقات والحالات التي يرجى فيها الإجابة ح1.
- 106 - الدعوات للراوندي 27/ نشر مدرسة الإمام المهدي قم ط1.
- 107- مستدرك الوسائل5/ 32 ح 2/5294 باب استحباب اختيار الدعاء بعد الفريضة على الصلاة تنفلاً.
- 108- نفس المصدر 1/5295 باب استحباب اختيار الدعاء في الصلاة وبعدها على إطالة القراءة.
- 109- الدعوات للراوندي 289ح28 مدرسة الإمام المهدي (عليه السلام)/قم ط1.
- 110- نفس المصدر ح29
- 111- وسائل الشيعة 7/ 109 ح12/ 8875.
- 112- وسائل الشيعة 5/ 87ح9/6999.
- 113- وسائل الشيعة 5/ 95ح5/6024.
- 114- وسائل الشيعة 6/ 340ح3/8126.
- 115- تهذيب للشيخ الطوسي 2/ 114 ح195/427 باب كيفية الصلاة وصفتها....
- 116- الكافي 2/ 509 باب من تُستجاب دعوته ح1.
- 117- نفس المصدر ح2.
- 118- الكافي 2/ 510 باب من تستجاب دعوته ح6.
- 119- الإقبال لابن طاووس 1/ 269 / مكتب الإعلام الإسلامي ط1.
- 120- الدعوات للراوندي 36 / ح87 /مدرسة الإمام المهدي (عليه السلام) / قم/ ط1.

- 121- كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق،ص 352، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين قم ط 1405.
- 122- الخصال للصدوق 452.
- 123- الكافي 2/ 527 باب القول عند الإصباح والإمساء.
- 124- راجع كتاب الدعاء الطبراني 98 / دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ط1.


## الهوامش

* مبلّغ ديني ومدرّس في الحوزة العلمية.

# الإمام زين العابدين والدعاء

د. محمد كامل سليمان

الإمام زين العابدين

## والدعاء في بُعديَه الإنساني والأدبي

د.محمّد كامل سليمان *

لقد عاش الإمام زين العابدين (عليه السلام) في فترة من أشد الفترات حراجة في التاريخ الإسلامي، وكان عمره سنتين يوم اغتيل جدّه الإمام علي في محرابه[1].

| | |
|---|---|
| قَتلتمُ الصلاةَ في محرابِها | يا قَاتليهِ وهوَ في مِحْرابهِ |

وتوالت بعد ذلك الفتن في أيام عمّه الحسن (عليه السلام)، الذي عمل على جمع شمل المسلمين حين أقدم على صلح معاوية لقاء شروط وعهود لم يفِ معاوية بها[2]، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين أغرى جعدة بنت الأشعث زوج الحسن على سمّه بعدما أغراها معاوية بالمال ووعدها بالزواج من ابنه يزيد[3]

ثم كانت إمامة الحسين بعد أخيه الحسن (عليهما السلام)، ومعركة كربلاء التي كانت حربًا بين الإسلام والجاهلية، أو بين الحق والباطل، أو هي صراع بين النبوّة أو الإمامة والملك الدنيوي[4]، أو بين الأريحية والنفعية[5].

هذه المعركة صُرِع فيها الحسين (عليه السلام) كما هو معروف، وقتل كل أنصاره، إخوته وأبناؤه، حتى رضيعه ذُبح في حجر أبيه من الأُذن إلى الأذن، وهو يطلب له شربة من ماء([6]):

| | |
|---|---|
| طفلٌ على حِجر الإمام مُلثَّمٌ<br>من وردةٍ حَمراءَ صَوّحَها الظّما | بِنَجيعِه القَاني فَيَا للرائي<br>فَذَوتَ تَحِنّ لِقَطْرةِ مَاء[7] |

هذه الفواجع والمآسي التي مرّ بها العالم الإسلامي، عايشها علي بن الحسين (عليهما السلام)، واكتوى بنار معاناتها، كما رأى وشاهد سَبْيَ بنات النبي محمد (صلى الله عليه وآله)، وحَمْل رؤوس أهل بيته (عليهم السلام) على الرِّماح. رآها الإمام زين العابدين (عليه السلام)، فانغرست المأساة في أعماق نفسه، وتعمّقت في تجاربه، ولكن بدل أن تنقلب عنفًا وثأرًا وانتقامًا، تجسّدت باللاعنف والرحمة والعمل للانتصار لقضايا الإنسان، والعمل على تحرير العبيد، والدعاء والابتهال لله العظيم، ليجمع شمل الأمة على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، باثًا خلال الأدعية تعاليم الإسلام ومبادئه السامية.

## البُعد الإنساني عند الإمام زين العابدين (ع)

سيرة الإمام علي بن الحسين (عليهما السلام)، قوامها اللاعنف، فهو يقابل البغضاء بالمحبّة، والجحود بالتسامح، والشرّ بالإحسان.

يخطئ معه عبد أو أمةٌ، فيُعتقهما فورًا، ويستسمحهما[8].

رغم ما لاقى أبوه وإخوته من الأمويين، حمَى نساء الأمويين وأطفالهم قبل وقعة الحرّة عندما ثار أهل المدينة بالأمويين[9].

كان يتعرّض للإساءة من بعض الناس فيستغفر لهم ويسألهم عن حاجاتهم[10]، مما يجعلهم يخجلون من تصرّفاتهم ويتوجّهون نحو الإقلاع عن هذه العادات المشينة.

كان يعفو عن المُسيء إليه ويساعده حين يرمي به الدهر، كما فعل مع هشام بن إسماعيل المخزومي، والي المدينة من قِبل الأمويين، والذي كان يبالغ بالإساءة للإمام علي بن الحسين (عليهما السلام)، فلما غضب عليه الخليفة الأموي عزله وأمر أن يقف للناس ليقتّصوا منه، فكان يقول: لا أخشى إلا علي بن الحسين لكثرة ما ناله مني بدون سبب، فلما مرّ به الإمام علي بن الحسين (عليهما السلام) أمر غلمانه أن لا يتعرّضوا له بشيء، بل سأله عن حاجاته ومتطلباته، فناداه هشام بن إسماعيل نادمًا على ما فرط منه وهو يقول له: الله أعلم حيث يجعل رسالته[11].

هذه الفلسفة اللاعنفية الرائدة، تأثّر بها الكثيرون، حتى إن غاندي قال: تعلّمت من علي بن الحسين أن أظل مظلومًا حتى أنتصر[12].

كان يرتفع فوق التعصّب والمذهبية، فقد حمى - كما قدّمنا- نساء الأمويين وأطفالهم يوم ثار بهم أهل المدينة، وكان يدعو لحُمَاة الثغور -في ظل السلطة القائمة- لأنه كان يفهم الإسلام رسالة سماوية سمحاء ترتفع فوق كل هذه التهافتات[13]

من هذه المبادئ انطلق علي بن الحسين (عليهما السلام) واضعًا أسس مدرسة قائمة على بثّ العلم والتعليم، وإعطاء النموذج الصحيح للناس باطّراح الشر والتمسك بالأخلاق، لقد اتخذ من المسجد ومن بيته ملتقى يفيء إليه طلاب العلم الوافدون من أقطار العالم الإسلامي من سنة 61هـ حتى سنة 95هـ[14].

لقد كانت ثقة الأمّة بالإمام زين العابدين (عليه السلام)، ثقة عظيمة لا تزعزع، فكان مرجع علمائها وفقهائها كما كان جدّه علي بن أبي طالب (عليه السلام)[15].

هذه بعضٌ من لمحاتٍ يسيرة من المسيرة الإنسانية التي اختطّها علي بن الحسين (عليهما لسلام)، فأصبحت مَشعلاً يُستضاء به في ليل الظلم والاستعباد، استشرافًا لفجر الحرية والخلاص.

## رسالة الحقوق

ومن المهم أن نشير هنا إلى رسالة الحقوق التي وضعها الإمام زين العابدين (عليه السلام)، والتي كان مدارها العلاقات الإنسانية المتبادلة، حقوقًا وواجبات، فهي رائدة سبّاقة في مجال حقوق الإنسان.

إنها ترسم للإنسان حقوقه وواجباته، تجاه نفسه، جسدًا وروحًا، ثم تجاه المجتمع لكل هيكليّته ومقوّماته، بشكل يلفت إلى هذا الدستور الحكيم الذي وضعه للإنسان قبل إعلان شرعة حقوق الإنسان، مستقيًا مبادئه من تعاليم الإسلام، في محاولة جادّة ومسؤولة، تضع الإنسان في موقعه المطلوب ليكون بمستوى الأمل المعقود عليه.

والواقع أن هذه الرسالة بحاجة لدراسة خاصة مستفيضة، لذلك نكتفي بهذه الإشارة السريعة.

## يتبع =

---

[1]- الطبري: م5 ص146.

[2]- نفسه ص162.

[3]- الكامل في التاريخ،ابن الأثير: م3 ص460. مروج الذهب، المسعودي: 3/5، السيوطي، تاريخ الخلفاء ص192. مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني ص48.

[4]- سيدنا زين العابدين، الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر، ص15؛ أبو الشهداء، العقّاد، ص14.

[5]- أبو الشهداء، العقاد، ص 14.

[6]- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، م5 ص418 و419.

[7] - من قصيدة للمؤلف، ويلاحظ كتاب: الإيديولوجيا الشيعية في رثاء الحسين، للمؤلف ص6.

[8] - الإرشاد، الشيخ مفيد، ص286، ولمزيد من التفصيل حول هذا يلاحظ:

أ - حلية الأولياء، أبو نعيم الأصفهاني (430هـ)، ج3 ص125 وما بعدها.

ب- صفة الصفوة، ابن الجوزي (597هـ): ج3 ص92 وما بعدها.

[9] - الطبري، تاريخ الأمم. والملوك، ج5، ص485 و493

[10] - صفة الصفوة، ابن الجوزي، ص94.

[11] - الطبقات الكبرى، ابن سعد، م5، ص210.

[12] - زين العابدين، عبد العزيز سيد الأهل، ص7.

[13] - سيدنا زين العابدين، د. عبد الحليم محمود ص5.

[14] - قيم خالدة في الأدب والتاريخ، حسن الأمين، ص134.

[15] - دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ج2، ص16.

## تتمة مقال = الإمام زين العابدين، والدعاء في بُعديَه الإنساني والأدبي

## البُعد الأدبي في أدعيته (ع)

مظهران مهمّان يطالعان من يتوفر على مدارسة أدعية الإمام زين العابدين (عليه السلام) على مستوى البُعد الأدبي:

المظهر الأول: يتجلّى في هذا المعجم اللغوي الثرّ، الذي انتظم أدعيته كلها بلا استثناء، بشكلٍ يلفت إلى هذا الحفاظ الفذّ على المستوى الأدبي في التعبير، دون أن يتدهدى إلى مهوى التقريرية والمباشرة، وبمنأى عن الإسفاف أو الغرابة.

تزداد أهميته اللغوية إذا عرفنا أن الصحيفة السجادية هي ثاني كتاب ظهر في الإسلام بعد القرآن، وأوّل كتاب هو كتاب سُليم بن قيس الهلالي[1].

إن هذه الأدعية تسدّ الفراغ الذي خلّفه الدارسون الذين لم يألوا جهدًا في تعقّب الأحداث السياسية والاجتماعية وبيان أثرها في الأدب، دون أن يولوا النصّ الأدبي ما يستحق من اهتمام خاص، يُفصح عن التطوّر اللغوي الذي حمله معه الإسلام.

بل إن تلك الدراسات تحوّلت إلى "مضامين" اجتماعية لا يكاد يلتفت الدارس إلى "صيغتها الفنيّة" إلا أيسر الالتفات[2].

أدعية الصحيفة السجادية استطاعت على مستوى اللغة أن تصوّر تطوّر الجانب اللفظي والمعنوي بعد انتشار الإسلام في المرحلة التي تعتبر أنها لم تستطع أن تنهض بالتعبير عن قِيَم الإسلام وقضاياه الجديدة، مع الاحتفاظ بمزايا الشعر الفنية التي كانت قد بلغت مستوى مرموقًا في الجاهلية[3].

إن الضعف الذي لاحظناه على الشعر الإسلامي كان قد بدأ في الحقيقة قبيل الإسلام لا بعده، فعصر الفحول كان قد انقضى، ولم يبق منهم إلا الأعشى الذي مات وهو في طريقه إلى النبي (صلى الله عليه وآله) ليمدحه، و"لبيد" الذي كان قد بلغ الستين فأوشك أن يكفّ عن قول الشعر[4].

والواقع أن الإسلام حمل معه مُعجمًا جديدًا حضاريًا لكثير من الألفاظ، فاختفى الكثير من الألفاظ التي وُصفت بالغرابة مع حلول الإسلام، فقد فشا التأدّب والتظرّف، فاختار الناس من الكلام ألينه وأسهله، وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة، فاختاروا أحسنها سمعًا وألطفها بين القلوب موقعًا، والى ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على أسلسها، وأشرفها، (كما رأيتهم يختصرون ألفاظ "الطويل" فإنهم وجدوا للعرب فيه نحوًا من ستين لفظة، أكثرها بشع شنع، كالعشنط والعنطنط... والشوذب)، فنبذوا جميع ذلك وتركوه واكتفوا بالطويل، لخفّته على اللسان وقلة نُبوّ السمع عنه[5].

هذا وإن إهمال الدارسين للجانب الفني والتطوّر اللفظي للّغة بعد الإسلام والاعتناء فقط بالمضامين[6] الاجتماعية والسياسية، يدعونا لأن نقف وقفة متأنية مع لغة أدعية علي بن الحسين (عليهما السلام).

إن تبلور اللغة الإسلامية والحضارية بأساليبها وألفاظها في تلك المرحلة، مع احتوائها للمضمون المرتقب عبر تلك الأدعية، يستحثّنا لأن ندرس تلك الأدعية، لمستواها الفنيّ الرائع إلى جانب مضمونها الإيماني.

إن في هذه الأدعية سبقًا لكل ما عُرف فيما بعد من أشعار صوفية تذوب في حبّ الله تعبّدًا ورقًا.

فلنستمع إلى هذه المناجاة، تنثال من بين شفتي الإمام زين العابدين (عليه السلام)، فتحمل المتلقّي إلى أجواء روحية عبقة، فتنزعه من ربقة المادة وأغلال الجسد، إلى فضاء الروح ومعارج السماء:

(إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا.

إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك، وأخلصته لودّك ومحبّتك، وشوّقته إلى لقائك، ورضّيته بقضائك، ومنحته بالنظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعذته من هجرك وقِلاك، وبوّأته مقعد الصدق في جوارك، وخصصته بمعرفتك، وأهّلته لعبادتك، وهيّمت قلبه لإرادتك، واجتبيته لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك، وفرّغت فؤاده لحبّك، ورغّبته فيما عندك، وألهمته ذكرك وأوزعته شكرك، وشغلته بطاعتك، وصيّرته من صالحي بريتك، واخترته لمناجاتك، وقطعت عنه كل شيء يقطعه عنك.

اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والأنين، جباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة في خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك، وقلوبهم متعلّقة بمحبّتك، وأفئدتهم منخلعة من مهابتك.

يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة، وسبحات وجهه لقلوبِ عارفيه شائقة. يا مُنى قلوب المشتاقين، ويا غايةَ (آمال) المحبين. أسألك حبَّك، وحبَّ من يُحبُّك، وحبَّ كل عمل يوصلني إلى قربك، أن تجعلك أحبّ إليّ مما سواك، وأن تجعل حبي إياك قائدًا إلى رضوانك، وشوقي إليك ذائدًا عن عصيانك، وامنن بالنظر إليك عليّ، وانظر بعين الودّ والعطف إليّ، ولا تصرف عني وجهك، واجعلني من أهل الإسعاد والحَظوة عندك، يا مجيب يا أرحم الراحمين) [7].

المظهر الثاني: هو المستوى البلاغي والأسلوب الجديد الذي ينتظم أدعية زين العابدين (عليه السلام)، فإن في هذا المجال أكثر من ظاهرة تستوقف وتسترعي الانتباه، فعلى صعيد علم المعاني والنواحي الأسلوبية نستشفّ البلاغة التلقائية التي تمثّلت القرآن لغةً وأسلوبًا، بشكل لم يُتَح لغيرها - فيما نعرف من آثار - في تلك الأيام، حتى في الشعر (ديوان العرب).

ونحن إذا أعرضنا عن الوزن واحتفلنا بالجوانب الأخرى من مقوّمات الشعر، نرى في هذه الأدعية مقطوعات شعرية وقصائد بَوْح، تحمل الإنسان على سحر أجنحتها في معارج روحية سامية.

إن قراءة هذه الأدعية تبعث في الإنسان هِزة في المشاعر بعيدة الأثر، وقد عبّر عن ذلك عبد العزيز سيد الأهل في مقدمته لكتابه زين العابدين، فقد بكى حين قرأه، وانعطف، وتأثّر، وثار، وهو يصبو لأن يتولّد نفس الأثر في كل من يقرأ زين العابدين: (إني أرجو ألا أكون وحدي شاعرًا، وليكن الناس معي شعراء.. وأرجو ألا أكون وحدي من تأثّر لقراءة البطل، وقد هزّ زين العابدين من قَبلُ أكباد الناس في عصره، ولم يزل يهزّها في الأعصر، وسيهزّها إلى آخر الأبد)[8].

هذه لمحة عجلى عن الإمام زين العابدين (عليه السلام)، سيرةً وآثارًا، تستحثّ الدارس لأن يجلو للناس حكاية هذه السيرة وهذه الآثار لمن أدّب الناس بسيرته[9] قبل أن يؤدّبها بلسانه، وهذا الذي حارب الظلم بالعدل، والخيانة بالأمانة، والحقد بالمحبّة، والعداوة بالصداقة، والغدر بالوفاء...

وهذا الذي أعطى بأدعيته أسمى نموذج للغة العربية يوم حضّرها الإسلام شكلاً ومضمونًا، مفردات وأسلوبًا وتعابير...

إلى جانب مدرسة دُعائية كان هو واضعها، حيث تحوّل الدعاء على يديه، لا مجرد كلمات ابتهال جوفاء، بل نرى فيها تعاليم الإسلام ومبادئه بشكل ينغرس به في شِرب الجَنان ينابيع خشوع لا ينضب، وتتماثل عبره مداميك إيمان لا تتزعزع... فإذًا الدعاء مهماز إيمان يحفّز الإنسان للعمل والتحرّك، لأن العمل هو المعيار الصحيح، وإذا الدعاء أشعار يتغلغل إيحاؤها في الأعماق، وإذا الإنسان بعد تلاوتها في حالة نفسية وتعبئة روحية تجعله يندفع للعمل والعطاء.

وبعدُ، فهذه إشارة عجلى للبُعدين الأدبي والإنساني عند الإمام زين العابدين (عليه السلام)، وما هي إلا معالم تشير إلى أن دراسة هذا الموضوع تحتاج إلى مؤلفات جمّة تنوء بها الصفحات القليلة التي يمكن أن يُدبّجها يراع في مقال محدود.

## انتهى المقال

[1] - يلاحظ مقدمة الصحيفة السجادية الكاملة،بقلم محمد مشكواه، تحقيق الشيخ محمد الأخوندي، والفهرست لابن النديم، ص307.

[2] - في الشعر الإسلامي والأموي، الدكتور عبد القادر القط، ص8.

[3] - نفسه، ص 12.

[4] - نفسه، ص 13.

[5] - الوساطة بين المتنبي وخصومه، الجرجاني، ص21.

[6] - في الشعر الإسلامي والأموي، عبد القادر القط، ص29.

[7] - الصحيفة السجادية الثانية، جمع وتحقيق الحرّ العاملي، مع إعادة تحقيق السيد محسن الأمين، ص 33-34-35؛ الصحيفة السجادية (ابطحي)، الامام زين العابدين (ع)، ص 413.

فاقتي: فقري وحاجتي. رام: طلب. حولا: انتقالا. حبوته: أعطيته. بوأته: أنزلته وأسكنته. هيمت: حببت وصرفت. أوزعته: ألهمته.

[8] - زين العابدين، عبد العزيز سيد الأهل، ص98.

[9] - نفسه، ص 3 وما بعدها من المقدمة.

---

### الهوامش

* باحث وأديب.

# الدعاء روح ومعرفة

الشيخ علي ياغي

الشيخ علي ياغي *

## مدخل

لم يزل الدعاء سلاح المؤمن يدفع به المضرة ويجلب به المنفعة، ويصرف به السوء ويستدعي به الخير والبركة، ولعباد الله العارفين حالات مع الدعاء والمناجاة والابتهال، حيث تحملهم المعرفة بالمدعو سبحانه والمعرفة بلغة الدعاء إلى مواطن القرب والجذب والفناء، فيتحولون مع الدعاء إلى ذوات متألهة خالصة، متحررة من عقال المادة وذائبة في لطافة الروح، ليتجلى بهم ولسفرهم هذا من أسرار الملكوت ما ينقلب به الغيب إلى شهادة وعيان.

ولكم ظهرت آيات قُرب الأنبياء والحجج والأولياء من ساحة القدس الملكوتي والملك الربوبي في مشاهد لم يبلغ إليها غيرهم، ولم يبلغوا هم أنفسهم إليها إلا بالنداء والتوسل والدعاء.

فقد تجلّى لكل واحد من أنبياء الله تعالى وأوليائه بحسب طاقة نفسه واحتمال عدته ومكنة روحه ولطافتها من أسرار الله ما اغتنت به أرواحهم، وتألهت له ذواتهم، حتى كانوا وقفًا على رضاه سبحانه، ولم يعد في الوجود عندهم سواه.

وقد قصّ القرآن الكريم مشاهد من حالاتهم في أدعيتهم وتوسلاتهم ما فيه غنى للطالب ومقنعة للراغب.

أما نحن المبتلون باختلاف الأمزجة وعراك الطينة، المترددون بين منازل الكمال ومهاوي الإذلال، نحن نقول مقالتهم لكن لا نغتذي منها غذيتهم، نعم لنا مع المراس والدأب وحسن التأدب واستيفاء دواعي القرب والجذب أن نحوز على شيء من سنى الضياء وطعم الغذاء، فكل بحسب قابليته واستعداده وإمكانه، فكل واد يحمل من السيل بقدره ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولمّا كان الدعاء بهذه الأهمية والمنزلة لزم النظر والفكر في ناموس الدعاء وسننه عسى أن يوفق الله عز وجل لخلاصة تستقر عليها القناعة وتغني تصوّرنا بفهم الدعاء، مقدمة للوقوف على عتبة أهل الله وأهل القرب.

## أطراف الدعاء

فهنا أطراف ثلاثة يجدر بنا قراءتها والربط فيما بينها، لأجل اكتمال النظرة إلى الدعاء، وبالتالي ارتقابًا لسرور الناظر وبهجة الخاطر ومنه العون وهو ولي التوفيق.

فالطرف الأول: المدعو.

الطرف الثاني: الداعي.

الطرف الثالث: الدعاء.

وبتعبير آخر الطرف الأول المطلوب منه، الطرف الثاني: الطالب، الطرف الثالث: نفس الطلب وأدواته وآدابه.

## الطرف الأول: المدعو

أقول، إن انعكاس الحقائق في مرآة النفس الآدمية ليس بمستوى واحد ولا على حد واحد، وإن كانت الحقائق ليس لها في واقعها إلا حدًا واحدًا وقدرًا واحدًا، وأظن أن هذا المعنى من المسلَّمات التي لا يناقش فيها أحد من المتنبِّهين، ولذا فإن طلب المعرفة بالأشياء يخضع لمنطق المراحل والأطوار، فيبتدئ من الضعف ويتسامق إلى القوة والاشتداد.

على أن حمل المعرفة على كل واحد من مستوياتها صحيح ولا يصح سلبها، إلا أن كل فرد من أفراد المعرفة يترتب عليه أثره الخاص، لأن كل مستوى من مستويات المعرفة بالشيء له اقتضاءات بقدرها، لأجل ذلك نقول بأن معرفة المدعو سبحانه هي أحد أركان الدعاء وطرفه الأول، ولكن أي فرد من أفراد المعرفة بالمدعو سبحانه هو المحقِّق للغاية، والموجب بلوغ الداعي إلى منزل أهل الإجابة وموطن أهل القبول.

والذي نعتقده أن المعرفة بالمدعو سبحانه، المطلوب منه، ينبغي أن تكون -تلك المعرفة- بمرتبةٍ حاصرةٍ سببيةَ قضاءِ الحاجةِ فيه دونَ أيٍّ من الأغيار سواه سبحانه وتعالى، ونعتقد كذلك بأنه هو القادر على كل شيء ولا يعجزه شيء، صحيح أننا في عالم الفكرة والتصور نحن جميعًا بل حتى أولئك الذين أشركوا ينظرون لهذه العقيدة كما قال تعالى حكاية عنهم **{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}**[1]، فهم يعيشون تصور الفكرة وينطقون بهذا المعنى فلا ينكرون قدرته سبحانه وتعالى على خلق السموات والأرض، فهذا مستوى من مستويات المعرفة بالله سبحانه ولكنه لا يُسمن ولا يُغني من جوع لأنه مُنتقَض ومُبدّد، وذلك أنه لم يجمع معه لوازمه ولم يبطل ضده من نفي الشريك في الملك والقدرة وما أشبه ذلك.

وعليه، فمثل هذه المعرفة وهذا الفرد من أفرادها، لا اقتضاء فيه ولا فاعلية له في تبليغ صاحبه إلى درجة ومرتبة ومستوى الدعاء المجاب، أو حتى أصل مبادئه ومبدأ انبعاثه، فلئن أقرَّ هؤلاء بأن الله عز وجل هو الخالق إلا أنهم لم يتابعوا في طريق معرفته جلّ وعلا لمعرفة لوازم معنى كونه خالقًا، ولجهة إثبات الأزلية ونفي الشريك وإرجاع كل شيء إليه وتنزيهه عن جميع النقائص، وما إلى ذلك من لوازم كونه واحدًا أحدًا فردًا صمدًا وحيًا قيومًا.

وهذا الفرد - أعني المذكور في الآية- هو الأضعف بين أفراد المعرفة بالله سبحانه المطلوب منه والمرغوب إليه تبارك وتعالى، وبين هذا الفرد من المعرفة به سبحانه وبين أعلى مراتبها - وهي تلك التي بلغ إليها الأنبياء والأوصياء وأهل الخلّة وأرباب العقول والنفوس- ما لا يحصى له عدد ولا يبلغ إلى حصره أحد، ولكل واحد من

هذه الأفراد اقتضاؤه الخاص وآثاره الخاصة، ونضرب هنا مثالين فقط من أمثلة المعرفة العالية والبالغة:

**المثال الأول**: ما كان يعيشه عليّ أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي يقول: (لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينًا) [2].

**المثال الثاني**: ما عاشه الإمام أبو عبد الله الحسين بن علي (عليهما السلام) وصرّح به في دعاء يوم عرفة (كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك، ولا تزال عليها رقيبًا، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبًا)[3].

والذي يعنينا في معرض بحثنا هذا هو إعطاء الضابطة العامة في تقدير مستوى المعرفة بالمدعو سبحانه وتعالى ليكون النداء والدعاء ذا اقتضاء وفاعلية وتأثير.

وبالجملة نقول، بأن المعرفة الواجدة للإقتضاء هي تلك التي يعلم معها صاحبها علمًا قاطعًا جازمًا غير مدخول بناقض ومضعِّف وموهِّن بأن الله عز وجل سميع عليم وهو على كل شيء قدير، وهذه المعرفة حاصلة لا محالة عن سَبَبَيْها العليين:

السبب الأول: قابلية النفس البشرية للاعتقاد وتملكها القدرة على الجزم إثباتًا ونفيًا بهذه القضية وسواها، فليس من العسير على النفس أن تعيش اليقين وأن تملك الجزم بأن الله جلّ شأنه هو كذلك وفوق ذلك.

**والسبب الثاني**: إرفاد هذه القابلية بالمادة العلمية لتغذية النفس بخلاصة غذائها النافع، وذلك بأن يطلب العلم ويتذوّق طعم حلاوته، ويتمرّس على ذلك من خلال التفكر والتأمل ليكون عوادًا على هذه النفس بهذه الأغذية المعينة لها والمفخمة لجوهرها، حتى تغدو النفس ذات أَلَقٍ وبهجةٍ ورَوْحٍ تعيش اليقين وتساهم في استزادة وترسيخ أصولها الطاهرة وتعميقًا لجذور الخير في أصل جبلّتها ليكون ممن يشملهم قوله تعالى**{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}**[4].

وخلاصة القول، إن مرتبة المعرفة بالمدعو ومستوى درجتها لَهي ركن أول وأساس في جعل الدعاء مشتملاً على شرط القبول والإجابة.

وروي أن الإمام الصادق (عليه السلام) قرأ **{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ}** فسئل: ما لنا ندعو ولا يستجاب لنا؟ فقال: لأنكم تدعون من لا تعرفون، وتسألون ما لا تفهمون، فالاضطرار عين الدين، وكثرة الدعاء مع العمى عن الله من علامة الخذلان، من لم يشهد ذلة نفسه وقلبه وسره تحت قدرة الله حكم على الله بالسؤال وظن أن سؤاله دعاء والحكم على الله من الجرأة على الله. [5].

وهذه الكلمة تعبير آخر عن أن معرفة هؤلاء بالله سبحانه بهذا المستوى ليست موجِدة للركن ولا محقِقة للشرط، ونحن قد بيّنا الطريق الموصل إليها ولا قوة إلا بالله.

## يتبع =

[1] - سورة الزمر: من الآية38.

[2] - مواقف الشيعة، علي بن حسين علي الميانجي، مؤسسة النشر الإسلامي، ط1، 1416هـ، ج1، ص89.

[3] - بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج 64، ص 142.

[4] - سورة الشمس الآية 9.

[5] - التفسير الصافي - الفيض الكاشاني ج 1 ص 223

## تتمة مقال = الدعاء روح ومعرفة

الطرف الثاني:

## الداعي أو الراغب والطالب

وهنا كلام عريض وبحث واسع غير أننا نقصده ونختصره بحدود ما يتحمل المقال فأقول:

إن ما ينبغي توفره في الداعي والطالب والراغب والآمل بعد امتلاكه المعرفة على النحو الذي ذكرناه آنفًا:

أولا: أن يَفيَ العبد للربّ كلّ عهد وميثاق وعقد والتزام، فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: **{وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ }**[1].

وسئل الإمام الصادق (عليه السلام) عن سرّ عدم الاستجابة للدعاء، فقال (عليه السلام) لأنكم لا تفون لله بعهده وأن الله يقول**{وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ }**، والله لو وفيتم لله لوفى لكم[2].

وسئل أمير المؤمنين (عليه السلام) عن قوله تعالى: **{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}** فما بالنا ندعو فلا يجاب؟ قال: (إن قلوبكم خانت بثمان خصال:

أولها: إنكم عرفتم الله، فلم تؤدّوا حقه كما أوجب عليكم، فما أغنت عنكم معرفتكم شيئا.

والثانية: إنكم آمنتم برسوله، ثم خالفتم سنته وأمتّم شريعته، فأين ثمرة إيمانكم؟

والثالثة: إنكم قرأتم كتابه المنزل عليكم، فلم تعملوا به، وقلتم: سمعنا وأطعنا، ثم خالفتم.

والرابعة: أنكم قلتم إنكم تخافون من النار، وأنتم في كل وقت تقدمون إليها بمعاصيكم، فأين خوفكم؟

والخامسة: إنكم قلتم إنكم ترغبون في الجنة، وانتم في كل وقت تفعلون ما يباعدكم منها، فأين رغبتكم فيها؟

والسادسة: إنكم أكلتم نعمة المولى، ولم تشكروا عليها.

والسابعة: إن الله أمركم بعداوة الشيطان، وقال: **{إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً}**[3]، فعاديتموه بلا قول، ووالیتموه بلا مخالفة.

والثامنة: إنكم جعلتم عيوب الناس نصب عيونكم، وعيوبكم وراء ظهوركم، تلومون من أنتم أحق باللوم منه، فأي دعاء يستجاب لكم مع هذا؟ وقد سددتم أبوابه وطرقه، فاتقوا الله، وأصلحوا أعمالكم، وأخلصوا سرائركم، وأمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، فيستجيب الله لكم دعاءكم) [4].

وقد سئل الإمام الصادق (عليه السلام): يا ابن رسول الله ما بال المؤمن إذا دعا ربما استجيب له وربما لم يستجب له، وقد قال الله عز وجل (ادعوني استجب لكم) فقال (عليه السلام): إن العبد إذا دعا الله تبارك وتعالى بنية صادقة وقلب مخلص استُجيب له بعد وفائه بعهد الله عز وجل، وإذا دعا الله عز وجل بغير نية وإخلاص لم يُستجب له، أليس الله يقول **{وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}** فمن وفى أُوفي له[5].

أقول بأن العهد قد أخذ على العباد بما يشمل عالمي الاعتقاد والعمل معًا، فعندما تقول الآية الشريفة أوفوا بعهدي، معنى ذلك حصِّلوا الإيمان بالغيب وغيره من الاعتقادات، وكذلك قوموا بما عليكم من واجبات دينكم الذي بلغكم برسله ورسالته ولا تتنكبوا هذا الصراط، لأن ذلك إخلال بالعهد.

ومن الطبيعي أن تخضع المعاملة بين العبد والربّ إلى تلك المعادلة جريًا على سنّة المفاعلة فكل من طرفيها يدعو الآخر إليه وفق طبيعة الطرفين، فإذا ما حصل العبد على وظيفة العبودية وما به قوامها من الاعتقاد والعمل فقد تأهلّ حينئذ وصلح لصدور النداء ولمعت فيه بوارق إجابة الدعاء.

وبعد، فإن الوفاء بالعهد من العبد بناء على سعة نطاقه وشمول معناه للاعتقاد والعمل، ينبغي أن يقدِّم العبد بين يدي الدعاء التوبة وطلب العفو والمغفرة، ذلك أن غير المعصوم لا يتوفر غالبًا على تحقيق العبودية والتزامات العهد بالمعنى الذي يجعله طرف المفاعلة إلا بالتوبة بل بالتوبة النصوح الخالصة.

وعليه فإن ما ورد في الروايات الشريفة من أن الله عز وجل لا يستجيب لفلان أو فلان أو فلان من أصحاب الذنوب والكبائر والأعمال غير المرضية، كله راجع إلى هذا الأصل أي الوفاء بالعهد لأن كل مخالفة هي نقض للعهد وإنقاص لطرفية الطرف في معادلة المفاعلة.

وعلى ضوء هذا الحاصل من فهم معنى العهد يتبيَّن ما في فتح باب التوبة للعباد من الرحمة الإلهية والرأفة الربانية وتحبُّب ذي العزة والجلال إلى العباد المبعدين أنفسهم من ساحة القرب والحارمين لها من لذة الجذب.

## الطرف الثالث: الدعاء

وهو نفس المادة التي تربط الطرفين، ليُفيض من خلال هذا الربط، الكاملُ من الطرفين على الناقص، والغني منهما على الفقير المحتاج.

والكلام في هذه المادة واسع أيضًا ومتفرع إلى حد كبير، فيدخل في نطاق مفهومه ومعناه عناوين وعناوين، والذي يتحكم في تحديد عنوان المادة هو منطقها وأسلوبها وغايتها، وعليه فتارة يطلق على المادة عنوان المناجاة وأخرى التوسل، وثالثة الذكر، ورابعة الطلب، إلى ما هنالك من أصناف وعناوين بل تحت كل من هذه العناوين أفراد وأفراد.

والذي يبدو لي وأنا أتحدث عن الدعاء - نفس المادة- أن أثير بعض الأمور المهمة:

الأمر الأول: المادة بين الاختراع والمسنون

وأقصد بالاختراع أن ينسج الداعي والطالب لغته التي يناجي أو يتوسل أو يطلب أو يذكر الله بها ومن خلالها، أما المقصود بالمسنون فالأدعية والأذكار المأثورة عن أهل الذكر العُرفاء الحقيقيين الذين تلقوا علمهم عن السماء بلا واسطة.

وبالتأكيد إن الفارق بين اللغتين وروح اللغتين لا يسمح بالمقارنة والمشابهة، ففرق بين لغة العرفاء الكاملين وبين لغة غيرهم، سيما إذا افترضنا أن لغة الدعاء وطبيعة ألفاظه ونظم تركيبه يؤثر في صفحة الكون من أرض وسماء، فكل كلام له مستقر يستقر فيه، وعالم من عوالم هذا الوجود يتربع فيه، بل يتعدى عن حدّ الاستقرار والتربع إلى حد الفاعلية والتأثير، فمن غير الصحيح أن ندرك من الكلمة أو الشعور والخاطر، أنها صوت يصدر عن حناجرنا ليستقر في المسامع فحسب، فهذا فهم أقل من ساذج وأرخص من الوهم.

يقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ* تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[6].

ولا تنافي بين حمل الآية في مفردة الكلمة على الحجج الأطهار (عليهم السلام) وحملها أيضًا على الدعاء فهو من الكلمة بالمباشرة أو التأويل.

وورد في الرواية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): الدعاء سلاح المؤمن، وعمود الدين ونور السموات والأرض[7]، وكذلك الدعاء زين السموات والأرض، إلى غيرها من المأثور عن فعل الدعاء وفاعليته وتأثيره.

لذلك نعتقد أن الدعاء بالمأثور مقابل الاختراع هو المتعين انسجامًا مع فهم الدعاء وغايته، وتطبيقًا لما ورد من الروايات التي تحثّ على التعبد بالأدعية المنصوصة، وإن كنّا لا ننفي أثر وفاعلية الخاطر الصادق المنطلق من عمق النفس المتألمة والمضطرة، وكذلك صرخة المظلوم وغيرها فإنها لغة مستجابة كذلك.

فقد أورد الشيخ الكليني في الكافي عن عبد الرحيم القصير قال: دخلت على أبي عبد الله (عليه السلام) فقلت: جعلت فداك إني اخترعت دعاء قال: دعني من اختراعك إذا نزل بك أمر فافزع إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وصلِّ ركعتين تهديهما إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله).. الحديث[8].

وعن عبد الله بن سنان قال: قال الإمام الصادق (عليه السلام): ستصيبكم شبهة فتبقون بلا علم يرى، ولا إمام هدى ولا ينجو منها إلا من دعا بدعاء الغريق، قلت: كيف دعاء الغريق؟ قال: يقول: (يا الله يا رحمن يا رحيم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " فقلت: " يا الله يا رحمن يا رحيم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك " قال: إن الله عز وجل مقلب القلوب والإبصار، ولكن قل كما أقول لك: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) [9].

الأمر الثاني: الدعاء في المكان والزمان

نعتقد بأن تخيّر الزمان وتخيّر المكان للدعاء والمناجاة والطلب يدخل في ضمن الوسائل المبلّغة إلى الغايات المرجوة من الدعاء، من مثل الدعاء في المسجد، أو المكان الذي كان يواظب فيه المؤمن على الصلاة والذكر والعبادة، وعند نزول المطر في أول آناته، أو في المكان الذي تشرّف بطاعة صالح أو وليّ من الأولياء كبيوت العلماء الربّانيين والصلحاء الذاكرين، أو في الكعبة المشرّفة، وفي مقام إبراهيم، وفي مسجد النبي المطهَّر، وعند قبره الشريف، أو في مراقد الأئمة المطهرين، سيما في مرقد الإمام أبي عبد الله الحسين الشهيد المظلوم (عليه السلام)، فإن الروايات الشريفة المأثورة عن الأئمة المعصومين (عليهم السلام) أكّدت على ذلك، كما أنها أكّدت على تخيّر الزمان أيضًا، من مثل السدس الأخير من الليل والفجر، والزوال، وساعة الأصيل، وتَخَيّرت من الأيام الجمعة وليلته، ومن الأشهر شهر رمضان وشعبان ورجب.

وما ذكرناه هنا من تَخَيُّرات الزمان والمكان هو من باب المثال وليس الحصر، وغرضنا أن نلفت إلى ما يجعل الدعاء جامعًا لشروط الإجابة والكمال في التأثير والبلاغ، وقد تضمنت كتب الأدعية والزيارات تحديد الأزمنة والأمكنة والحالات التي ترجّح استجابة الدعاء، مثل كتاب مفاتيح الجنان للشيخ عباس القمي، ومفتاح الجنات للسيد محسن الأمين ومفتاح الفلاح للشيخ البهائي، والمصباح للكفعمي وغيرها.

الأمر الثالث: مكانة الصلاة على محمد وآل محمد في الدعاء

فقد ورد في الروايات الشريفة عن الصادقين (عليهم السلام): من كانت له إلى الله عز وجل حاجة فليبدأ بالصلاة على محمد وآله، ثم يسأل حاجته، ثم يختم بالصلاة على محمد وآل محمد، فإن الله عز وجل أكرم من أن يقبل الطرفين ويدع الوسط، إذ كانت الصلاة على محمد وآل محمد لا تحجب عنه[10].

وكذلك ورد: كل دعاء محجوب عن السماء حتى يصلي على محمد وآل محمد.

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله): صلاتكم عليّ إجابة لدعائكم.

وورد أيضًا: لا يزال الدعاء محجوبًا حتى يُصلّي على محمد وآل محمد.

ولا ينبغي وضع الصلاة على محمد وآل محمد موضع الاستغراب إذ جعلت بهذه المكانة والأهمية، فالروايات جعلتها شافعة الدعاء، وإذنَ مروره إلى عالم الإجابة وقضاء الحوائج، ولا ينبغي الاستغراب بعد ورود الأمر من رب العالمين الذي له الخلق والأمر، فقد قدّر سبحانه أن يمضي أمره في خلقه عبر سننه التي سنّها وتقديره الذي قدّره، فجعل مفتاح الإجابة وشافع الدعاء الصلاة على الرسول الحبيب وآله الطيبين.

وأنزل في ذلك قرآنًا آمرًا بصيغة مفخّمة مكرّمة لم تجرِ عليها سنن أوامره الشريفة إذ يقول **{إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً}** [11].

وورد أيضًا في آيات الكتاب العزيز الأمر بابتغاء الوسيلة إلى الله عز وجل إذ يقول تعالى **{وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ}** [12].

ونحن نعرف من خلال المقطوع به من الأدلة أنه لا شيء من خلق الله عز وجل أقرب إليه من محمد وآل محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، فهي خيرة الوسائل وخيرها البتة.

## ختام

أقول بأن الدعاء أعني ما اشتمل على جميع ما ذكرنا من معان وشروط ليَرقى لجهة التأثير والفاعلية في التحصيل على إجابته وقضاء الحوائج به، وتحويل الصعاب إلى مُيَسّرات سهلة، ليَرقى أنه لا شيء إلى حد فاعلية وتأثير المادة بالمادة، بل يندرج الدعاء في سلسلة العلل المادية الحاكمة في السنن الكونية، بل نزيد على ذلك ونقول بأن حاكمية الدعاء على السنن الكونية هي حاكمية الملكوت على الملك والمملوك، وذلك لسبب اتحاد إرادة العبد من خلال الدعاء (أعني ما اشتمل على جميع ما ذكرنا) مع إرادة الرب الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

ويكفي في تصوير هذا الاتحاد قوله تعالى **{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ}**[13]، وكذلك الحديث القدسي: (عبدي أطعني حتى أجعلك مثلي تقول للشيء كن فيكون)[14]. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

[1] - سورة البقرة: من الآية40

[2] - بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج 90، ص 368.

[3] - سورة فاطر من الآية6

[4] - مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج 5، ص 269.

[5] - بحار الأنوار ج19 ص58.

[6] - سورة إبراهيم: 24-25.

[7] - الكافي، الشيخ الكليني 3/468.

[8] - الكافي، الشيخ الكليني ج 3 ص 476.

[9] - كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق (ت 381)، صححه علي أكبر الغفاري، 1405 هـ، دار النشر الإسلامي ص 352.

[10] - الكافي 2/494 ح16.

[11] - سورة الأحزاب الآية56.

[12] - سورة المائدة: من الآية35.

[13] - سورة النمل من الآية62.

[14] - شجرة طوبى، الشيخ محمد مهدي الحائري، 1/33، ط5، 1385، المكتبة الحيدرية.

---

## الهوامش

* مبلّغ ديني ومدرس في الحوزة العلمية.

# أيها المؤمن

سلاحك الدعاء د. يحيى الشامي

## أيها المؤمن... سلاحك الدعاء

د. يحيى الشامي *

من الغرائز أو الطبائع التي كشف عنها علم النفس - *عَدَّ منها ماك دوغال (Mc Dugall) أربع عشرة غريزة، ثم اضاف إليها في أخريات أعوامه أربعًا* - غريزة الاستغاثة التي هي بمثابة ردة فعل طبيعية لدى الإحساس أو الشعور بالألم أو العجز أو الخطر...

والغريزة، كما هو ثابت في علم النفس، سلوك عفوي فطري مشترك بين جميع أفراد النوع الواحد، يندفع إليه الفاعل اندفاعًا تلقائيًا، أو إراديًا لكن مصحوبًا بالاحتياج، وفي الحالين معًا، فإنّ الغريزة لا تخرج عن كونها واحدة من صور النشاط النفسي، وطرازًا من السلوك، عمَاده الفطرة والوراثة البيولوجية[1].

خُذ البكاء على سبيل المثال، بكاء الطفل خاصة، أليس هو في الأصل تعبيرًا عن هذه الغريزة المسمّاة بغريزة الاستغاثة، يبكي الطفل أحيانًا، يُجهش بالبكاء، يتهيأ له، وقد يكون بكاؤه تعبيرًا عن إحساسٍ بالجوع أو الألم، وليس هذا هو المهم، بل المهم أن الطفل في بكائه إنما هو يستغيث، يستصرخ أمه، يُحرّك فيها كل عواطف الأمومة، فتراها تُهرع إليه، تحوطه بالعناية والحماية والرعاية...

ثم خذ البكاء، بكاء الكبار، والكبير يبكي أيضًا، وقد يبكي من شدّة الفرح أحيانًا، والمرأة تبكي أكثر من الرجل، أليس هذا البكاء نكوصًا عن الرجولة، ورجوعًا إلى الطفولة المحتاجة إلى الحماية، كما بيَّنا من قبل؟!

وهبْ أن الإنسان تمالك أو تجلّد، وعزّ عليه البكاء، فما بالُك إذا ما أيقن بالهلاك أو العذاب، أفلا تراه مضطرًا إلى الحماية يطلبها ممنّ هو أقدر منه وأعزّ... يدعوه، يتضرّع إليه، يستغيثه، يلتمس منه النجاة أو التوبة التي التمسها فرعون لمَّا أدركه الغَرَق، فآمن حين لا يُجدي الإيمان فقيل له: **{آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}**[2].

دعا فرعون، وكان ادّعى الربوبية، فما استجاب الله دعوته، ودعا العبدُ الصالح زكريا، وهو النبيّ الذي بلغ من الكِبر عتيًا، دعا ربّه أن يهب له غلامًا، وكانت امرأته عاقرًا، فوهب له يحيى، خرقًا للعادة، وأجيبت دعوة زكريا....

دعاءٌ لم تتحقق غايته، وآخرُ تحققت الغاية منه، وبين هذه وتلك أسئلة تُطرح، ومسائل تُبحث...

فما هو الدعاء؟ ما موقعه من العبادة؟ وهذا ما يخصّنا في هذا البحث.

ما آدابه وأوقاته، وموارده؟ وهل ثمة من حاجة إلى الدعاء وإلى المواظبة عليه؟

## ما هو الدعاء

الدعاء لغة، من دعاه إذا ناداه، ورغب إليه، واستعانه في حاجة من الحاجات، أو غاية من الغايات، والدعوى المصدر... ودعاه إلى الأمر، ساقه إليه، ودعا به، استحضره، ودعا له، رجا له الخير، ودعا عليه، طلب له الشر، ودعا إليه طلب إليه...

والدعاء كما سلف، وأيًّا تكن الحاجة أو الغاية منه، وأيًّا كان الداعي، فهو لا يخرج في الأصل عن كونه سلوكًا فطريًا غريزيًا مشترَكًا بين جميع أفراد النوع الواحد، كتعبيرٍ عن غريزة كامنة في النفس، هي غريزة الاستغاثة بالغير، طلبًا للحماية أو الرعاية، وإنك لتجد مصداق ذلك في قوله تعالى: **{قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ}**[3]، وفي قوله الآخر **{قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ}**[4].

عذابٌ في الدنيا قد يأتي بَغتة، وآخرُ عند قيام الساعة... ظُلماتٌ من فوقها ظلمات، في البرّ ومثلها في البحر، ويا لَلهول، يستشعر خطرها الداعي، تَمثُل له فتُحرّك فيه تلك الغريزة، غريزة الاستغاثة؟ فإذا هو يَجْأر إلى الله، يرفع صوته بالدعاء، ملتمسًا الحماية والرعاية، والنجاة... ماذا؟ أهي الرهبة، أم الخوف الذي قد يَعرض - وبحسب تعبير ابن مسكويه - عن تصوّر شرّ، أو توقّع مكروه، أو انتظار محذور؟[5].

ماذا؟ والخوف أو الرهبة، كما هو معلوم، درجات متفاوتة الشدة، أدناها الخشية (crainte)، وأعلاها الذعر (panique)، وشدّة الخوف تتناسب في العادة مع عِظَم المكروه المتوقّع، وإن كان توقّع الخوف لا يقلّ عن الخوف بعينه، والألم المتخيّل يسمى خوفًا، فيما اللذة المتخيلة، وبحسب تعبير بول ريكور (P.Ricoeur)، تُسمى رغبة، وكلا الحالتين الرهبة والرغبة تجد ما يناسب معنييهما في الآيتين الخامسة والخمسين، والسادسة والخمسين من سورة الأعراف **{ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}**[6]، وإن كان من المناسب أيضًا في هذا المقام، أن نعطي للتضرّع والخُفْيَة معنى التذلّل والاقتصاد في تجاوز الحدّ المرغوب فيه من الدعاء، كما في الآية الأولى، وللخوف معنى الخوف من العقاب، وردّ الدعاء، وللطمع معنى الطمع في العفو والفضل وإجابة الدعاء، كما في الثانية.

## الدعاء من العبادة

يتبين من الآيتين السابقتين أن الدعاء مظهر من مظاهر العبادة، بل قُل هو عبادة في نفسها، يُعبد الله سبحانه بها لما في ذلك من إظهار الخضوع والانقياد إليه، لا بل هو "أفضل العبادة" حسبما ورد في شرح إمامنا الصادق (عليه السلام) للآية: **{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}**

.[7]

وفي رواية حنان بن سدير عن أبيه قال: قلت لأبي جعفر (عليه السلام): (أيّ العبادة أفضل؟ فقال: ما من شيء أفضل عند الله عز وجل من أن يُسأل ويُطلب ما عنده، وما من أحد أبغض إلى الله عز وجل ممن يستكبر عن عبادته ولا يسأل ما عنده)[8].

وعن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله: (افزعوا إلى الله في حوائجكم، والجأوا إليه في مُلمّاتكم، وتضرّعوا إليه وادعوه فإن الدعاء مُخّ العبادة، وما من مؤمن يدعو الله إلا استجاب، فإما أن يُعجّله له في الدنيا، أو يؤجّل له في الآخرة، وإما أن يُكفّر له من ذنوبه بقدر ما دعا)[9].

ومثله عن علي (عليه السلام) في معرض وصيته لولده الحسن (عليه السلام): (...واعلم أن الذي بيده خزائن السموات والأرض قد أَذِنَ لك في الدعاء وتكفّل لك بالإجابة، وأمَرك أن تسأله ليُعطيك، وتطلب إليه ليرضيَك، وتسترحمه ليرحمَك، وهو رحيم كريم)[10].

## شروط إجابة الدعاء

ولئن أذن الله سبحانه لنا بالدعاء فإن ثمّة شروطًا لا بدّ من توافرها حتى يُستجاب الدعاء:

منها: خُلوّ الدعاء من المفسدة أو القبح، وعدم القنوط من الإجابة ولو تأخّرت، وحسن الظن بالله تعالى، والإخلاص في الدين لله **{فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}**[11]، وترك الرياء، والورع والكفّ عن محارم الله، وتطهير القلب من الشوائب، ومن خصال الخيانة التي عدّ منها الإمام علي (عليه السلام) ثمان هي: عدم أداء الحق، الذي أوجبه الله، ومخالفة سنّة رسوله (صلى الله عليه وآله) وترك العمل بما أنزل الله، والإصرار على معصية الله، والبعد عمّا يُرغّب في الجنة، وجَحد نِعَم الله، وموالاة الشيطان، والانشغال من عيب النفس بعيوب الناس[12].

آداب الدعاء، وأوقاته، وموارده:

واعلم أن للدعاء آدابَه وأوقاتَه وموارِدَه، وأن من آدابه افتتاح الدعاء بذكر الله، والثناء عليه، والصلاة على النبي وآله (صلى الله عليه وآله)، وإظهار الاستكانة، والتضرّع، والتذلّل، والخشوع، والبكاء أو التباكي إن لم يحصل البكاء..[13].

وإنّ من أوقاته التي يرجّح فيها القبول، وقت السَّحَر، وما بين الطلوعين، وما بين الأذان والإقامة، ولكل وقت من الأوقات دعاء مخصوص، فللشهور أدعيتها، وللأيام والليالي والساعات أدعيتها، تجد ذلك مفصّلاً في كتب الأدعية والزيارات.

وأما موارد الدعاء فشتّى، وإن كان جُلّها يتعلق بطلب الرزق وقضاء الدين وكشف الكرب أو الهمّ ودفع الضرّ والبلاء والمكروه، والشفاء من العلة أو المرض، وقبول التوبة والاستغفار من الذنوب التي تُنزل البلاء والغلبة على الأعداء، وما أكثر الأعداء....

فيا أخي المؤمن.. دونك الدعاء، فإنه يَردّ القضاء المبرم، وهو زادك وسلاحك، فاتخذه جُنّة لك ووقاءً، ولا تيأس من رَوح الله، وإن أبطأت الإجابة، فقد يكون في الإبطاء عصمة لك... وقد يكون في دعائك الذي تدعوه مفسدة لك... اقطع كلّ أمل إلا أمَلك في الله، وكلّ رجاء إلا رجاءك في الله، ولا تعتصم إلا بحبل الله، إذ ما من مخلوق - وهذا ما جاء في الحديث القدسي - يعتصم بمخلوقٍ دون الله، إلا قطع الله أسباب السماوات وأسباب الأرض من دونه، فإن سأله لم يُعطه وإن دعاه لم يُجبه، وما من مخلوق يعتصم بالله سبحانه دون خلقه إلا وضَمِنَتْ السماوات والأرض رزقه، فإن دعاه أجابه وإن سأله أعطاه وإن استغفره غفر له[14].

أيها المؤمن... الدعاء ثم الدعاء، إذ نحن الضعفاء، والله هو القوي، ونحن الفقراء، والله هو الغني.

وختامًا، أُذكّرك بقوله تعالى: **{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}**[15]، وبقول الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله): (أفضل العبادة الدعاء)، وقوله الآخر: (سلاح المؤمن الدعاء)، وقوله أيضًا: (أعجز الناس من عجز عن الدعاء، وأبخل الناس من بخل بالسلام)[16]. ثم بقول أمير المؤمنين علي (عليه السلام): (... ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرت شآبيب رحمته.... فألحِحّ بالمسألة، ولا يُقنطنّك إبطاء الإجابة، فإن العطية على قَدر المسألة، وربما أُخّرت الإجابة فيكون ذلك أعظم لأجر السائل وأجْزَل لعطاء الآمل..)[17].

جعلنا الله وإياك من السائلين ما عند الله من فضله، ولا جعلنا ممن يستكبرون عن عبادته، ولا يَسأل ما عنده.

[1] - صليبا، جميل: المعجم الفلسفي2/127، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982.

[2] - سورة يونس الآية 91.

[3] - سورة الأنعام الآية 41.

[4] - سورة الأنعام 63-64.

[5] - ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص 207 (بدون ذكر مكان الطباعة وتاريخها).

[6] - سورة الأعراف الآية 55-56.

[7] - صحيح الكافي 1/135، ط1، الدار الإسلامية، بيروت 1981.

[8] - المصدر نفسه 1/135.

[9] - تفسير الميزان للطباطبائي، 2/37، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط2، بيروت 1971.

[10] - إتمام نهج البلاغة، تحقيق السيد صادق الموسوي، ص959، مؤسسة الإمام صاحب الزمان، قم 1417هـ.

[11] - سورة غافر الآية 14.

[12] - القمي، عباس: سفينة البحار 1/449، دار المرتضى بيروت.

[13] - صحيح الكافي ج1/139.

[14] - تفسير الميزان2/35.

[15] - سورة غافر الآية 60

[16] - مجمع البيان ج2 ص 126.

[17] - إتمام نهج البلاغة ص 960.

## الهوامش

* دكتوراه دولة في الآداب، وحلقة ثالثة في اللغة العربية وآدابها

# التقليد سيرة العقلاء

الشيخ مفيد الفقيه

## التقليد

## سيرة العقلاء في رجوع الجاهل إلى العالم

الشيخ مفيد الفقيه

التقليد هو الاستناد إلى قول الغير في مقام العمل، بمعنى أن العامل يستند في عمله إلى قول الغير، ويجعله مسؤولاً عنه، وكأنه قلادة في رقبته، وهذا المعنى هو المفهوم من التقليد لغةً وعرفًا، ولذلك يقال في العرف العام: قلّدتك الدعاء والزيارة، فهو كذلك في العرف الخاص، وعلى هذا المعنى وردت الروايات في التقليد الشرعي.

## مسألة التقليد لا تقليد فيها

ومسألة التقليد ليست من المسائل التي يجب التقليد فيها، فإذا قيل بأنه يجب على المسلم أن يُقلّد، فمن الذي حكم عليه بهذا الوجوب؟ ومن الذي قال له يجب أن يقلد؟

لا يصح أن يقال: إن هناك شخصًا آمرًا، لأن هذا أيضًا تقليد يحتاج إلى تقليد آخر ليحقّ له الرجوع إليه، وهكذا، فيلزم التسلسل!!

بل الصحيح: أن المكلف المعتقد بالله ورسوله واليوم الآخر وما جاء به الرسول، يعلم بأنه مكلّف بأحكام الشريعة الإسلامية المقدّسة، ويجب عليه الخروج عن عهدة هذه التكاليف بإطاعة أوامر الله تعالى والإقلاع عن المعاصي، لأن الأحكام التي جاءت بها الشريعة منجّزة على كل مكلف، حيث إنه يعلم إجمالاً بوجود كثير من هذه الأحكام في الشريعة، إلا أن أكثر هذه الأحكام مجهولة عنده، عدا ما هو بديهي ضروري كالصلاة وسائر الفرائض، ولكن تفاصيلها مجهولة عند المكلف، ولذلك يُدرك عقله بأنه لا بد من الخروج عن عهدتها، لأن غير العاقل لا يُكلَّف، وحيث إنه لا يعرفها، فلا بد له من معرفتها وتعلُّم تفاصيلها.

فما يعرفه بالوجدان والضرورة لا كلام فيه، وأما سائر الأحكام - وهي كثيرة جدًا تشمل جميع تقلّبات الإنسان وتصرّفاته وأعماله - فلا بد له من معرفتها وتعلّمها ممن يعرفها، ولا بد أن يكون قول هذا الغير حجة عليه، لأن العمل بلا حجة لا يُبرئ الذمة، فلا بد له من التقليد والرجوع إلى من يعلم بهذه الأحكام.

## الأدلة

وأما ما هو الدليل على حجية قول هذا العالم في حق الجاهل بالأحكام، فالكلام فيه: (تارة) فيما يستفيده العالم الذي يفتي بوجوب التقليد من الأدلة الشرعية كالكتاب والسنة. (وأخرى) فيما يدعو المكلف - الجاهل بالحكم - للرجوع إلى العالم.

## أ - أدلة المجتهد على مشروعية التقليد

أما بالنسبة للعالم، فعمدة ما يمكن ذكره من الأدلة على نحو الاختصار: كتاب الله وسُنّة نبيه (صلى الله عليه وآله) بالإضافة إلى حكم العقل، وسيرة العقلاء الراجعة إلى السنّة كما سنذكر.

(أما الكتاب العزيز): فعمدة ما يدل على ذلك من الآيات، آية النفر، وهي قوله تعالى: **{فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}[1]**.

حيث دلّت الآية الكريمة على وجوب النفر بمقتضى (لولا) التي هي أداة تحضيضية تبعث إلى الفعل، والغاية من النفر الواجب هو التفقّه، فتدل على وجوبه، والغاية من التفقه - بالإضافة إلى عمل الشخص المتعلّم - هي الإنذار بما تفقّه به وتعلّمه من الأحكام.

والإنذار لا موضوعية له، ولا هو واجب في نفسه، بل هو نفس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا إنما يجب لأجل ترتّب الحذر عليه والابتعاد عن المعاصي من قِبل من بلَغه هذا الإنذار.

فتدل الآية على وجوب الأخذ بأقوال هؤلاء الذين نفروا وتفقّهوا، ورجعوا فأنذروا، وهذا معناه التقليد، لأن الحذر الذي هو غاية الإنذار لا يراد به مجرد الخوف النفساني، بل هو التحفظ عن الوقوع فيما لا يريده الإنسان من المهالك لإحراز ما يراد الوصول إليه من المنافع.

فتدل على وجوب الحذر بالعمل على طبق ما أنذر به، وإن لم يكن واضحًا عند السامع، ما دام هو قد تفقّه لأجل ذلك، مع وثاقته وعدالته، فلو كان المفروض أن يتيقن السامع بعد الإنذار، لكان الأولى أن يعبّر بالفعل أو بالترك دون أن يعبّر بالحذر.

فتدل الآية على وجوب الإفتاء على من تفقه، كما تدل على وجوب التقليد، لأنه يجب الحذر والتحفّظ عند الإنذار والتعلّم.

(وأما السنّة): فهي الروايات الواردة عن أهل بيت العصمة، الذين أمر الله والرسول (صلى الله عليه وآله) بالرجوع إليهم مع القرآن.

فقد دلت روايات كثيرة على حجية فتوى المفتي، كالتي دلّت على إرجاع الناس إلى أشخاص مخصوصين، أو إلى عناوين تنطبق على الفقهاء.

كقوله (عليه السلام) لأبان بن تغلب: (اجلس في مسجد المدينة، وأفتِ الناس، فإني أحب أن أرى في شيعتي مثلك)**[2]**.

وقوله (عليه السلام) في رواية أخرى لمعاذ بن مسلم: (بلغني أنك تقعد في الجامع فتفتي الناس؟ قلت: نعم. وأردت أن أسألك عن ذلك قبل أن أخرج، إني أقعد في المسجد فيجيء الرجل فيسألني عن الشيء،فإذا عرفته بالخلاف لكم أخبرته بما يفعلون، ويجيء الرجل أعرفه بمودتكم، فأخبره بما جاء عنكم، ويجيء الرجل لا أعرفه، ولا أدري من هو، فأقول: جاء عن فلان كذا، وجاء عن فلان كذا، فأُدخل قولكم فيما بين ذلك. قال: فقال لي: اصنع كذا، فإني كذا أصنع)**[3]**.

وأظهر من الكل ما ورد عن إمام العصر الحجة بن الحسن المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) في رواية إسحاق بن يعقوب: (وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله)**[4]**.

فإن الحوادث الواقعة قد لا تكون منصوصة بخصوصها، فلا يمكن معرفة حكمها إلا بالاجتهاد من قبل المفتي، بإعمال نظره، وتطبيق ما تعلّمه من الفقه على ضوء الكتاب والسنة.

والتعبير بـرواة الحديث في هذه الرواية إنما هو لأن الرواة في ذلك العصر هم الفقهاء، حيث إنهم اطّلعوا على الأحكام من مصادرها الأصيلة، فعرفوا ظواهرها وعامّها وخاصّها، وسائر ما يحتاج إليه فقهاء عصرنا للتوصّل إلى الحكم، فإنهم بالنظر إلى قرب عهدهم وكونهم من أهل اللسان لا يحتاجون إلى المقدمات التي احتاجها المتأخرون عنهم، هذا مع أن القرآن الكريم قد عبّر عن مثلهم بالتفقه في الدين في قوله تعالى **{لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ}**.

بالإضافة إلى أن مصدر الفقاهة عند علماء الشيعة هو الأدلة والروايات التي وصلتهم عن أهل البيت (عليهم السلام)، وليس لهم رأي من قبل أنفسهم إلا بمقدار ما يستفيدونه من الروايات والكتاب العزيز بما يوافق العقل.

هذا فيما يرجع إلى استدلال المجتهد بشكل مختصر..

وأما ما يتبعه العامي فهو الارتكاز، وتوضيح المسألة:

## ب - أدلة العامي على وجوب التقليد

(الارتكاز): ومما يدل على لزوم التقليد ووجوبه، هو الارتكاز الثابت عند عقلاء البشر قاطبةً، وسيرة العقلاء المبنية على هذا الارتكاز من رجوع الجاهل إلى العالم والعارف في كل ما يحتاج إليه الإنسان من سائر شؤون الحياة، من المعاش والمعاد وحفظ نظام حياتهم من جميع الجهات، فيرجعون في كل شيء إلى أهل الخبرة في ذلك الشيء،

في كل حرفة وصنعة وعلم من العلوم، وسائر شؤون الحياة.

فالناس بفطرتهم وطبيعتهم التي تعوّدوا عليها وتلقّوها ممن كان قبلهم، يفعلون ذلك، فيرجع المريض إلى الطبيب لا إلى النجار، وهكذا سائر الأمثلة، يعني يرجعون إلى كل عالم بعنوانه الخاص، فالذي يريد السؤال عن مسألة شرعية من قبل الشريعة، يرجع إلى العالم بتلك الأحكام.

## اتصال السيرة بزمن المعصوم

وهذه السيرة مستمرّة بين العقلاء، وهي حجة شرعية، لأن الشريعة قد أقرّتها في كل الشؤون، إلا إذا ورد نهي شرعي في بعض الموارد، كما ورد النهي عن كثير من تصرّفات الناس فيما تعارفوا عليه مما لم يرتضه الشارع، وهذا الوضع يعرفه كل الناس وإن لم يلتفتوا إلى الاستدلال به في الأحكام الشرعية، إلا أنه مرتكز في أذهانهم. لأنه بعدما أدرك عقل الإنسان وجوب الطاعة وحرمة المعصية، واعتقد بالعقاب على المخالفة، صار لزامًا عليه أن يبحث ويسأل ويرجع إلى الخبير!!

وأيضًا لا بد من معرفة الخبير بالشريعة، ويتم ذلك عن طريق الرجوع إلى أهل الخبرة أنفسهم أيضًا.

وهذه السيرة حجة شرعية إذا أقرّها الشارع وأمضاها، أو لم يردع عنها، فإن عدم الردع في قوة إمضائها وإقرارها.

فلا بد من بيان معنى الإقرار والإمضاء، ومعنى الردع الذي يمنع الأخذ بها أو بغيرها، ثم بيان الوجه في حجية السيرة ثانيًا، فنقول:

## إقرار السيرة وإمضاؤها يعني حجيتها

بعد الفراغ عن أن الشريعة الإسلامية لم تترك وضعًا وحالة وفعلاً من أفعال الإنسان بدون حكم، لأنها جاءت لتنظيم حياة الإنسان في جميع شؤونه، ولذا قلنا بأنه لا تخلو واقعة عن حكم شرعي على نحو الاقتضاء أو التخيير.

وهذه الأحكام - المُلزِم منها بالفعل أو الترك وكذلك غير المُلزم - على نوعين:

النوع الأول: ما هو أحكام تأسيسية، كالعبادات وغيرها مما لا يكون موجودًا عند الأعراف الاجتماعية ولا علاقة لهم به كأفراد وجماعات، لأنهم إنما يتعاملون مع ما يرون أنه لا بد منه في تنظيم شؤونهم دون ما أسّسته الشريعة وفرضته.

النوع الثاني: ما هو أحكام إمضائية، وهو المعاملات المتداولة بن الناس من سائر التقلبات كالمعاشرات والعقود والإيقاعات والصناعات والزراعات، حسبما يتطلبه نظام حياتهم من الناحية الاجتماعية والمعاشية وسائر الشؤون.

فكل حكم في الشريعة حول هذه الأمور يوافق ما تبانى عليه الناس وساروا عليه قبل الشريعة أو بغضّ النظر عنها، فهو حكم إمضائي بمعنى أن دور الشريعة بالنسبة إليه هو إمضاء وإقرار هذا الوضع المُعين، مثل قوله تعالى **{وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ}[5]**، و**{أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}[6]**، ونحوهما.

## عدم الردع عن السيرة وأثره

ففي مثل هذه الأمور قد نصّ الشارع على الإمضاء، ولكن لا يجب أن ينصّ على كل وضع موجود ليكون إمضاءً وشريعة، بل يكفي أن يكون الوضع معلومًا عند الشارع ولا يردع عنه، بل يسكت عنه، فإن هذا إمضاء وموافقة عليه ما دام بمرأى ومسمع منه، لأنه في مقام التشريع والبيان، فإذا حكم بحكم مخالف لسيرة الناس العقلاء وسلوكهم في أيّ شأن من شؤون تعايشهم وتعاملهم، فهذا ردع ونهي عن ذلك السلوك مطلقًا، فهو إبطال لذلك الوضع من الأساس، وأما في بعض الخصوصيات، فهو إمضاء لأصل الوضع مع تعديله في بعض خصوصياته إيجابًا أو سلبًا.

فالعقود كالبيع والإجارات والزواج، والإيقاعات كالطلاق والهبة والإبراء والصدقات، وكذلك الحال في القصاص والديات في الجنايات، وغيرها، فهذه الأمور لها قواعد مقرّرة في المجتمع الإنساني، أمضاها الشارع إجمالاً من حيث الاعتراف بأصل مشروعيتها ولكنه أدخل عليها بعض التعديلات، فنهى في هذه المعاملات عن الربا والغشّ والعبث وسائر ما هو محرّم بنظر الشريعة وجعل المعاملة حينئذٍ أكلاً للمال بالباطل.

هذا الإمضاء في مقابل الأحكام التأسيسية التي لا يتداولها الناس في مقام التعايش بينهم كالعبادات، لأنهم من الناحية الاجتماعية والمعاشية لا يتبانون على هذا النوع من الممارسات التي هي علاقة خاصة بين الإنسان وخالقه، لأنهم إنما يتبانون ويؤسّسون في الشؤون التي يتوقّف عليها نظام حياتهم كمجتمع يريد أن يعيش بحرية وأمان، والعبادات لا دخل لها بهذا الشأن من وجهة نظرهم، ولذلك استمرت حياتهم من هذه الناحية.

بينما تنظر الشريعة إلى الإنسان بجميع شؤونه العامة والخاصة في روحه وبدنه ومعنوياته ليعطي لكل حالة الحكم - المناسب - الذي يعلم الله بأنه يُصلح الإنسان، ولذلك لا تخلو واقعة فعلية أو مُفترضة عن حكم، إما بالنص على ذلك الحكم، أو بإمضائه، بالنص على خصوص الواقعة، أو بالنص على قاعدة عامة ينسحب حكمها على كل جزئياتها ومصاديقها.

وأما لماذا تكون هذه السيرة حجة، فلأنها تكشف عن رأي المعصوم كشفًا قطعيًا إذا علمنا باطلاعه عليها ووجودها في زمانه، حيث إن فعل المعصوم حجة، وإقراره وإمضاؤه حجة كقوله ونصّه على الشيء.

والسر في ذلك:

أن أصحاب الأئمة (عليهم السلام) وأصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله) قبلهم، من الرواة ونقلة الحديث، وسائر المسلمين، كانوا مكلفين من الناحية الشرعية بالالتزام بأحكام الشريعة والسؤال عنها، والمطّلع منهم على الحكم كان مكلفًا بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كذلك كانوا مكلفين - بمقتضى تنصيب الأئمة للرواة والحافظين منهم - بحفظ الشريعة ونقلها إلى المسلمين المعاصرين والقادمين بعدهم، وهم بحكم سلوكهم وتديّنهم ووثاقتهم كانوا ملتزمين بالشريعة، وحيث إنهم من جملة العقلاء الملتزمين بالعرف العقلائي القائم في كل شأن من شؤون الحياة الاجتماعية عند العقلاء، فإنهم كانوا يسألون ويستفهمون، وكان من واجب الأئمة (عليهم السلام) أن يبلّغوا الشريعة، لذلك لم يكونوا ليسكتوا عن وضع سائد إذا كان مخالفًا للشريعة.

فإذا لم ينقل هؤلاء الرواة العقلاء ردعًا، لأن الأئمة لم يبلّغوهم الردع، كشف ذلك بصورة قاطعة عن كون هذا السلوك سلوكًا مشروعًا وغير مرفوض من قبل الشريعة، اقتضاءً أو تخييرًا، لأن السيرة المخالفة تُوثّر سلبًا على أحكام الشريعة، وتؤدّي إلى ضياعها، فلا يجوز إهمالها من قِبل صاحب الشريعة، وهو المعصوم، بل لا بد له من صيانتها مباشرة، أو من قبل أصحابه، لأنهم كما قلنا أُمناء وملتزمون بواجباتهم تجاه هذه الشريعة.

فإذا أقرّ وضعًا عقلائيًا عامًا، كرجوع الجاهل إلى أهل الخبرة في اختصاصهم أو إلى تشخيص ظهورات الكلام ومعانيه، كان ذلك نصًا في الإمضاء والإقرار على هذا الوضع، وإذا أحال الشارع المقدس المكلفين في أحكامهم الشرعية على الرواة والفقهاء، لأنهم أهل خبرة في الأحكام الشرعية، فهذا إمضاء للسيرة في هذا الأمر، وكذا في غير الفقه من الموارد التي أُمروا فيها بالرجوع إلى أهل الخبرة، وهذا إمضاء صريح، وهو من السنّة التي هي أحد الأدلة، لأن تقرير المعصوم وإقراره سنّة، بالإضافة إلى قوله وفعله (عليه السلام).

وإذا لم يكن هناك إقرار وإمضاء صريح، بل سكت عن وضع عقلائي عام سائد ولم يردع عنه، فإن ذلك يدل على إمضائه وإن لم يصرّح بالإمضاء، إذ مع الاهتمام الشديد بحفظ الشريعة، فإن عدم وجدان الردع يكشف عن عدم وجوده، خصوصًا مع وجود الدواعي لذلك، فإن الأصحاب كانوا يسألون عن الصغيرة والكبيرة، ونقلوا الأحكام التي يقلّ الابتلاء بها حتى بالنسبة للأفراد، بل ربما لم يبتلِ بها أحد من المسلمين مع أنه لم يكن هناك وضع عام يتعلّق بهذه الأحكام، فكيف يمكن السكوت عن وضع عام يبتلي به عامّة الناس؟! ولا يصدر حكم ولا سؤال عنه مع الاطلاع عليه!! فإن ذلك السكوت من الإمام، سواء كان تصرفًا عامًا أو تصرّفَ شخص مع شخص آخر، هو إمضاء، وإقرار لهذا الوضع، أو لهذا التصرّف، فإن هذا السكوت إمضاء وسنّة، لأن السنّة - كما قلنا - هي قول المعصوم أو فعله أو تقريره وإمضاؤه، والإمضاء قد يكون في مورد خاص مع الأشخاص وتصرّفاتهم الخاصة في عباداتهم أو في تعاملهم الخاص، وقد يكون إمضاء لوضع عام.

فالسنّة الممضاة وغير المردوع عنها، هي سنّة وحجّة شرعية.

هذا من حيث الكبرى، أعني أصل الحكم بحجيتها!!

## اتصال السيرة بزمن المعصوم!

وأما من حيث الصغرى، وهي تَحَقُّق هذه السيرة في زمن المعصومين، أو في زمن أصحابهم الذين عاصروهم، أو الذين عاصروا من عاصروهم من الفقهاء والرواة، فهذا يَثبت بالوجدان والنقل، ومع بُعد العهد - كما في عصرنا - فإننا ننظر إلى الأوضاع السائدة ونطّلع على ما أقرّوه في زمانهم وما لم يقرّوه.

## الشك في اتصالها بزمانهم

فإذا لم نطلّع على وجود هذا الوضع في زمانهم أو الزمن القريب منهم، يحصل عندنا شك في حكم الشريعة في هذا الوضع، والمتّبع هو استمراره من ذلك الوقت، حيث إننا نشك في أنه وضع قديم، أو أنه مستحدَث وقد غيّر المجتمع الوضع القديم، فنُجري أصالة عدم النقل، بمعنى أنه عندما نشك في أنهم هل تلقّوا هذا الوضع ممن سبقهم، أو أنهم أحدثوه في زمن ما بعد زمن المعصومين، فإن القاعدة الشرعية التي تثبت حجيتها بالنص الشرعي تقتضي عدم الاستحداث، وهي أصالة عدم النقل، فإن أصالة عدم وجود الردع مع الاحتياج إليه في كل العصور، يكشف عن الإمضاء حتى لو لم يكن موجودًا في زمانهم، لأنهم لم يشيروا إليه في مجموع الروايات التي كانوا يسألون فيها عن جزئياتٍ ومصاديقَ من عناوين عامة.

وأما إذا لم يكن وضع معين في عصرنا، فلا دليل عندنا على المسألة، والحكم هو ما تقتضيه القواعد الشرعية، ولا علاقة للسيرة في هذا الأمر. كأن يرد النهي عن مصداق من عنوان عام، ولم يرد النهي عن مصاديقه الأخرى، فهذا يدلّ على عدم الردع عن هذا الوضع إلا في هذا المصداق، فقد ورد - من باب المثال - النهي عن بيع الغرَر، وبيع النجس، والبيع الربوي، والسفهي، وأما مطلق البيع بعنوانه في باقي المصاديق فلم يرد نهي عنه، بل أمضاه الشارع بنص القرآن الكريم، وبعنوانه العام **{وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ}[7]**، وكذا بقية العقود التي نصّ القرآن الكريم على حلّيتها مع النهي عن بعض مصاديقها، وأما بقية المصاديق فلم يرد نهي عنها، وهي بالعنوان العام وضع سائد أمضاه الشارع، وهكذا...

والحاصل: أن رجوع الجاهل إلى العالم في كل اختصاص، هو وضع لا يحتاج إلى أصل يُثبت وجوده في العصور السابقة، إن لم نقل بأنه موجود منذ بدء البشرية، فلا يحتاج إلى مزيد مؤونة، ولا تصل النوبة إلى الشك.

لذلك كان رجوع الجاهل إلى العالم - ومنه رجوع العامي إلى الفقيه - وضعاً مستمرًا لا يحتاج إلى وجدان خارجي أو أصل يُثبت عدم النقل إليه، ولذلك قلنا بأنه يجب على كل مسلم مكلّف أن يسأل الفقهاء، وهذا هو التقليد، هذا مضافًا إلى النصوص التي دلّت على ذلك من الكتاب والسنة.

## صفات العالم

يبقى الكلام في صفات المجتهد الذي يكون تقليده مبرئًا للذمة، وفي كيفية الوصول إلى معرفته، فنقول:

أما من حيث صفاته العامة، فقد وردت بعض الراويات التي تدل على صفات من يُرجع إليه في عصر الغيبة - تلك الفترة التي كان الفقهاء نوّابًا ووكلاء من قِبل صاحب الأمر الحجة ابن الحسن المنتظر (عجل الله فرجه الشريف)-:

منها: ما ورد عنه (عجل الله فرجه الشريف): (.. وأما الحوادث الواقعة، فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله)**[8]**.

ومنها: قول أبي جعفر (عليه السلام): (من أفتى الناس بغير علم ولا هدى من الله لعنته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتياه)**[9]**.

ومنها: مقبولة عمر بن حنظلة عن أبي عبد الله (عليه السلام): (.. ينظران من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكمًا، فإني قد جعلته عليكم حاكمًا، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه، فإنما استخفّ بحكم الله، وعليه ردّ، والرادّ علينا الرادّ على الله، وهو على حدّ الشرك بالله..الحديث)**[10]**.

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن المقصود بالرواة هم الفقهاء.

ومنها: ما دل على أن الثقة المأمون يؤدّي عن الإمام ويقول عنه، وأنه يجب إطاعته والاستماع لنقله وفتواه**[11]**.

ومنها: قوله (عليه السلام) في حديث: (فأما من كان من الفقهاء صائنًا لنفسه، حافظًا لدينه، مخالفا على هواه، مطيعًا لأمر مولاه، فللعوام أن يقلّدوه.. الحديث)**[12]**.

وقد وردت بهذا المضمون روايات كثيرة، ومعنى الإطاعة لأمر مولاه أن لا ينظر في كل أقواله وأفعاله وتصرّفاته إلا من خلال الشريعة الإسلامية، فيكون ممثلاً ومجسّدًا لجوهر الشريعة بأعلى مرتبة مطلوبة من غير المعصوم، لأن مرتبة العصمة لا يصل إليها أحد من البشر،و هذا تختلف فيه مراتب العلماء، قال تعالى: **{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}[13]**.

## تقليد الأعلم

فلو تعددوا يختار واحدًا منهم، وأما لو اختلفوا، وكان واحد منهم أعلم من الآخر، فالواجب هو الرجوع إلى الأعلم.

وتدل على ذلك السيرة المستمرّة، عند سائر البشر، عندما يختلف أهل الاختصاص، ويكون واحد منهم أكثر كفاءة ومعرفة من الآخر.

وأما كيف يعرف المجتهد والأعلم، فمرجعه إلى أهل الخبرة في هذا الاختصاص أيضًا، ويستدل عليه بنفس الدليل بتفاصيله، لأن الرجوع إلى أهل الخبرة والاختصاص - بعد حجية السيرة - هو أمر من الإمام (عليه السلام)، فلا نعيد تكرار الاستدلال.

نعم يشترط التعدد في أهل الخبرة، وأقلّه اثنان من العلماء المجتهدين ولو بدرجة جزئية، ليميّزوا بين مراجع التقليد، فلو اختلف أهل الخبرة يرجع إلى الشهرة بين أهل العلم.

فالذي يرجع في التقليد إلى شخص لأنه يحبّه، أو لأنه من أرحامه وذويه أو لأن آراءه تعجبه، فإن تقليده لا يبرئ الذمة، ويكون مسؤولاً عن أعماله عند الله سبحانه.

[1] - سورة التوبة: من الآية122

[2] - الوسائل (آل البيت): 30/291؛ مستدرك الوسائل: 17/315، ب11 من أبواب صفات القاضي ح14

[3] - وسائل الشيعة (آل البيت): 16/233، ب30 من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ح2.

[4] - المصدر السابق: 27/140، ب11 من أبواب صفات القاضي ح9.

[5] - سورة البقرة، من الآية275.

[6] - سورة المائدة: من الآية1.

[7] - سورة البقرة من الآية275.

[8] - وهي مكاتبة إسحاق بن يعقوب إلى الناحية المقدسة، انظر: وسائل الشيعة (آل البيت): 27/14، ب11 من أبواب صفات القاضي، ح9.

[9] - المصدر السابق: 27/20، ب4 من أبواب صفات القاضي ح4.

[10] - المصدر السابق: ب11 من أبواب صفات القاضي ح1.

[11] - انظر المصدر السابق: الباب 11 من أبواب صفات القاضي: ح 4 - 5 - 8 - 15، وغيرها، فإنها تضمنت الإرجاع إلى عبد الملك بن جريح وأبان بن تغلب ومحمد بن عثمان العمري وأبي بصير، وغيرهم من الرواة والفقهاء، فإن الإرجاع إلى هؤلاء الأشخاص بعناوينهم لا بأشخاصهم، ويفهم ذلك من مثل التعليل بقوله(ع): (فإنه الثقة المأمون) ونحوها.

[12] - المصدر السابق، ب10 من أبواب صفات القاضي ح20

[13] - سورة المجادلة، من الآية11.

# الأقليات في الدولة الإسلامية

الشيخ حاتم إسماعيل

الشيخ حاتم إسماعيل *

## تمهيد

من المسائل المهمة والحسّاسة, التي طُرحت في الدراسات المعاصرة, في ما يرتبط بالدولة والمجتمع, مسألة الأقليات الدينية والعرقية, نظرًا لعلاقتها وارتباطها بحقوق الأفراد والجماعات في أنظمة الحكم, وكثيرًا ما ألصق الغربيون والعلمانيون تُهم التمييز العنصري ضد الأقليات العرقية والدينية, في نظام الحكم الإسلامي، بدعوى أنه لا يعترف بحقوق الأقليات، حيث اعتبر الأقليات الدينية (أهل ذمة)، ليس لهم في الحكم الإسلامي حقوق كاملة يتمتعون بها كسائر المواطنين، ولذلك فهم يلزمون بدفع الجزية, وكفى به توهينًا لهم, واستصغارًا لشأنهم, وحطًّا من كراماتهم.

وأما الأقليات العرقية، فهم بدورهم، لا يتساوون مع الأكثرية الحاكمة، في الحقوق والواجبات، وإن كانوا من المسلمين، وشواهد هذا التمييز كثيرة، من العصر الأموي والعباسي، بل والعثماني، حيث ظهر التمييز ضد الأقليات، في كثير من مفاصل التاريخ الإسلامي, بل إن الثابت من سير بعض الخلفاء والولاة أنه لم يكن يَقبل دعوى من مولى ضد عربي, وأن للعربي أن يأخذ منه ما يشاء عند حاجته, دون أن يحقّ له الاعتراض عليه في شيء.

بل ربما يقال أن الإسلام لا يعترف بالآخر، استنادًا إلى ما تقدم, وبملاحظة الدعوة إلى الحرب والجهاد ضد مخالفيه والقضاء عليهم واستئصالهم.

ولكن الحقيقة مخالفة لهذه التصورات جملة وتفصيلاً، إذ لا بد لمن ينظر بعين الإنصاف، أن يميّز أولاً بين ما قامت وتقوم به الحكومات الإسلامية، وبين القانون الإسلامي المشرّع, ولا يصحّ بحال من الأحوال، أن يُحمّل الإسلام وزر الأخطاء في التنفيذ، نتيجة اجتهادات خاطئة في فهم الأحكام، أو سوء النوايا عند بعض الحكام.

فلا بد من تسليط الضوء على هذه المسألة, لنعرف مدى مجانبتها للواقع والحقيقة, وإثبات أنها مجرد افتراء على هذا الدين الحنيف, اقترفته أيدي الغربيين الآثمة, كيدًا منهم للإسلام وأهله, وسعيًا منهم إلى إسقاطه من نفوس المسلمين, فيُسهّل ذلك لهم القضاء عليه, ويحققّون بذلك حلمًا طالما انتظروه, بدءًا من الحروب الصليبية, حتى إذا عجزوا عن تحقيق ذلك بالقوة, لجأوا إلى الخداع, والعمل على تهديمه بمعول الثقافة والمعرفة المزعومة، وهذا ما تمتد جذوره إلى بدايات الخلافة الإسلامية، كما هو معروف من سير مسلمة أهل الكتاب.

وقبل ذلك ينبغي تقديم مقدمة، وهي:

## الحكومة الدينية

إن أصل الحكومة الدينية - والتي تعني أنها تستند في تشريعاتها وقوانينها إلى أوامر الله تعالى ونواهيه، وليس للإنسان فيها أيّ يد سوى تطبيقها، وإجرائها على مستوى التنفيذ - تعتبر من الثوابت التي قامت عليها كافة الأديان، سماوية كانت أم غير سماوية, بما فيها الديانة المسيحية، وإن كانت هذه قد أعفت نفسها من التصدّي لممارستها، وحظرت على أتباعها والمؤمنين بها العمل للحكم والسعي إليه، للحصول عليه بطريق أو بآخر كما تدل عليه الكثير من النصوص الكتابية، من قبيل ما ورد على لسان السيد المسيح (عليه السلام): (سمعتم أنه قيل عَين بِعَين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشرّ، بل من لَطَمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضًا، ومن أراد أن يُخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضًا، ومن سخّرك ميلاً واحدًا فاذهب معه اثنين)([1]). وما ورد على لسانه أيضا:(لا تدينوا لكي لا تدانوا، لأنكم بالدينونة التي تدينون تُدانون وبالكيل الذي تكيلون يكال لكم) ([2]). وقد قال بولس بأن السلطان خادم الله، وعلى المسيحي أن يخضع له، ومن يقاومه يقاوم ترتيب الله والمقاومون سيدانون([3]).

وقريب منه ما قاله بطرس، ثم قال لهم: (فإن المسيح أيضا تألّم لأجلنا تاركًا لنا مثالاً لكي تتّبعوا خطواته)([4]).

ومن المعلوم أن السلاطين في عهد المسيح وبولس وبطرس كانوا من الوثنيين، ومع ذلك لا يحقّ للمسيحي أن يعترض عليهم، بل هو مُلزم بالخضوع لهم، وامتثال قراراتهم، وإن معاندتهم تعني معاندة الله تعالى، والاعتراض عليهم اعتراض عليه تعالى. ولقد وصل الأمر بالسيد المسيح (عليه السلام) أن يحذّر تلاميذه وأتباعه من المنافسة والاعتراض ولو بالكلمة: (ليكن كلامكم نعم نعم لا لا. وما زاد عن ذلك فهو من الشرير)([5]). ولكن مختلف بشارات السيد المسيح دعت إلى انتظار ملكوت السماوات، حيث يتحقّق العدل المطلق على الأرض.

وهذه الحكومة تجد جذورها في العهد القديم أيضًا، حيث وصف في سفر أشعيا شدة العدل فيها بقوله: (فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدي والعجل والمسمن معًا وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدبة ترعيان، تربض أولادهما معا, والأسد كالبقر يأكل تبنًا، ويلعب الرضيع على سرب الصل. ويمد الفطيم يده على جحر الأفعوان، لا يسيؤن ولا يفسدون في كل جبل قدسي لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر) ([6]).

ويقول في مكان آخر: (ويكون أني قبلما يدعون أنا أجيب، وفيما هم يتكلمون بعد أنا أسمع، الذئب والحمل يرعيان معًا، والأسد يأكل التبن كالبقر. أما الحية فالتراب طعامها. لا يؤذون ولا يهلكون في كل جبل قدسي قال الرب) ([7]).

ومن الظاهر أن حكومة بهذه المواصفات يجب أن تشتمل على قوانين وتشريعات تغطي كافة الأبعاد الإنسانية، وتكون مرضية عند الله تعالى، وهو ما لا يتوافق مع النظم الغربية للحكم وللعدل، كما نراه من تغير للقوانين والتشريعات بين فترة وأخرى، حيث يتبين عدم صوابية ما كان معمولاً به، واشتماله على مظالم كثيرة تقع على الناس.

ومعنى كل ما تقدم أن المسيحيين -فضلاً عن غيرهم- ملزمون بإعمال القوانين الإلهية في تنظيم شؤون الحياة والحكم، إلا أن المسيحية لم تشتمل على مثل هذه التشريعات، فيجب على أتباعها أن يكونوا حياديين تجاه أنظمة الحكم الأخرى، في أقل الفروض، والإسلام هو الدين الإلهي الوحيد الذي اشتمل على تشريعات عامة وشاملة. وأما العهد القديم فقد اشتمل على بعض التشريعات الخاصة، إلا أنها مختصة ببني إسرائيل، فلا تصلح من الناحية الواقعية لجميع بني الإنسان.

وإذا رجعنا إلى الحضارات القديمة والأمم السالفة, لوجدنا أنها كثيرًا ما كانت تصف أعمال ملوكها وانجازاتهم على أنها أوامر إلهية, بل إن كل حضارة تنسب نفسها إلى إله خاص بها, تستنزل بركاته, وترجو حمايته ونصرته على أعدائها وخصومها، وتُقدّم له القرابين المختلفة ليساعدها.

وهذا إن دل على شيء, فإنما يدل على أن الحكومة الإلهية مغروسة في وجدان الإنسان وفطرته, غاية الأمر أنه هو الذي ربما أساء تطبيقها أو فهمها, لأسباب كثيرة.

وإذا اتّضحت هذه المقدمة، فلنشرع في معالجة الاعتراضات الموجّهة، إلى الحكم الإسلامي، حسبما يقتضيه المقام، فنقول:

أولا: مسألة الجهاد:

إن أي دين من الأديان - بل كل حركة إصلاحية واجتماعية - يدعو الناس إلى اتباعه، والإيمان به والسير وفق رؤيته للحياة، وهذا أمر طبيعي في كل دين، وإلا فقد جوهره وحقيقته.

ولما كان الإسلام خلاصة حركات الأنبياء (عليهم السلام)، وعصارة جهودهم على مدى التاريخ البشري، بحيث استوعب كل ما يرتبط بحياة الإنسان **{مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}**([8]), فإن منظومته التي استجمعت سائر الخصائص الفطرية, والقابلة للبقاء في دعوات الأنبياء, فهي التي تحقق العدل المطلق بين الناس، فمن الضروري إذن أن يدعو الناس إلى الإيمان به، والالتزام بكافة أحكامه وتشريعاته، تطبيقًا لمبدأ العدل في الدنيا، والخلاص والنجاة في الآخرة.

إن الدعوة إلى الله تعالى تنطلق, أولا وقبل كل شيء, من إصلاح ذات الإنسان نفسه، وتحقيق السلام الداخلي فيه، وهذا يعني أن تتّسم الدعوة بكل المواصفات، التي تحقق صلاح النفس وسلامها الداخلي، وهو أمر لا يتوافق مع العنف بأي حال من الأحوال، وهو ما شدّد عليه القرآن الكريم في كثير من الآيات الشريفة، قال تعالى: **{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}**([9])، وهذه قمة الجهاد في الإسلام، ولذلك عبر عنه النبي (صلى الله عليه وآله) بأنه الجهاد الأكبر في بعض ما روي عنه.

وأما الجهاد بمعنى القتال، والذي عبر عنه النبي (صلى الله عليه وآله) في نفس الحديث بأنه الجهاد الأصغر، فالأصل فيه أن يكون دفاعًا عن هذا الدين وأهله, إذا تعرّضوا للاعتداء والهجوم بغية القضاء عليه.

وهذا النحو من الجهاد والدفاع، مما يتوافق مع الفطرة السليمة، وتقتضيه الطبيعة البشرية، إذ من غير المنطقي أن يترك الدين، بل كل دعوة إصلاحية، ألعوبة في أيدي العابثين، وكيد الحاقدين، من دون أن يتسلّح بما يدفع عنه شرورهم، وسعيهم للقضاء عليه، لأنه يبقى والحال هذه في مهبّ الريح، وهو ما لا يمكن أن يرتضيه عقل، ولا تقتضيه الطبيعة البشرية.

وقد بيّن القرآن الكريم حدود السلم والحرب حين قال تعالى: {لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}([10]).

كما بين القرآن الكريم بكل صراحة أنه لا يضيق ذرعًا باتّباع الأديان الأخرى، وأنه لا يريد فرض نفسه على الناس بالقوة، وبأي وسيلة، بل يعمل على إقناعهم بالمنطق والحكمة، فإن لم يهتدوا عمل على حمايتهم، قال تعالى: **{لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}**([11])، إن خير شاهد على أن الإسلام لم يدع إلى الحرب، ولا إلى التناحر، وأن حقيقة الدعوة الإسلامية تحقيق العدالة الاجتماعية، من خلال التوعية الفكرية، والحوار بالكلمة الطيبة، والعمل على السلام الداخلي والخارجي، هو سيرة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله)، حيث لم يبدأ بحرب قط، وأن حروبه كلها كانت عبارة عن الدفاع عن حياض المسلمين، وحماية ثغورهم من هجمات المتربصين بهم.

هذا في الجهاد الدفاعي، وهناك قسم آخر من الجهاد، وهو ما يسمى بالجهاد الابتدائي، ويعني الدعوة إلى الله تعالى من خلال الحرب والغزو، فقد ذهب مشهور الفقهاء إلى أنه خاص بالمعصوم (عليه السلام)، ولا يحق لأحد الدعوة إليه غيره، وهو موقوف على ما يراه المعصوم من المصلحة.

ولكن ألا يعني هذا النحو من الجهاد عودة المشكلة من أساسها، إذ الإشكال ناظر إلى أصل التشريع، وليس ناظرًا إلى من يقوم بتنفيذه!

والجواب: أنه استنادًا إلى أن حكومة آخر الزمان تنطلق من أوامر الله تعالى ونواهيه، وأن القائم عليها يجب أن يتمتع بمواصفات خاصة كما أجمعت عليه الأديان السماوية، وأنه لا يتحقق إلا بعد امتلاء الأرض ظلمًا وجورًا، كما هو مقتضى الأحاديث الإسلامية، وهو ما لا يتحقق إلا بعد استنفاد كل الطاقات والخبرات البشرية، في إقامة الحكم، وزعمها تحقيق العدل، وفشلها في ذلك (حتى لا تقول فئة لو حكمت لعدلت)، كما تدل عليه مجموعة أخرى من الروايات عن أهل البيت (عليهم السلام)، واستنادًا إلى ذلك لا يبقى أمام الحكم الإسلامي إلا إقصاء الفئات الظالمة وإرجاع الحق إلى نصابه.

ولهذا لم نجد أحدًا من المعصومين (عليهم السلام) قد دعا إلى تنفيذ هذا الحق والواجب، وظل مرصودًا إلى حكومة آخر الزمان، حيث يستشري الفساد في الأرض، ويضيق الخناق على المستضعفين من مختلف الملل والأديان، بحيث ينتظرون يوم خروجه (عجل الله فرجه الشريف) بفارغ الصبر.

ومعنى ذلك أن الجهاد الابتدائي مرهون ومقترن بذلك الزمان، حيث لا يبقى أي علاج لمشاكل المجتمع الإنساني غيره، إذ (آخر الدواء الكي كما هو معلوم).

وهذا الأمر متوافق مع الفطرة السليمة، وهو ما جرى عليه العقلاء في سيرتهم عبر التاريخ، إذ لا نجد فئة منهم إلا وتمقت الظلم وتحاربه، وتأنس بالعدل وتعمل له، فإن لم يمكنها ذلك من خلال الكلمة والإرشاد، نجدهم يلجؤون إلى السيف لأجل تحقيق ذلك، ولم يحصل أن نَفَر الناس من مثل هذا السلوك، إلا بمقدار ما يُخالف الدعوة المنشودة، في الناحية العملية.

وأما ما يسمى في التاريخ بالفتوحات الإسلامية بعد عصر النبي (صلى الله عليه وآله) فقد كانت غايتها الفتوح، والسيطرة السياسية والاقتصادية، ولم تكن فتوحات من أجل الدعوة الإسلامية، وإن لبست لباس الدين، ولهذا فإن من أهم آثار هذه الفتوحات تأخر قبول الإسلام، في نفوس أهالي البلدان المفتوحة، على المستوى النفسي، والانفعال الوجداني، وإن أظهروا الإسلام في العلن، إذ أن الظاهر أن مثل هذا الإسلام ناتج عن خوفهم من الفاتحين الجُدد، ولولا هذه الفتوحات لكان الإسلام قد دخل بلاد المعمورة كلها، من خلال الحوار الهادف، لملامسةِ الحقائقِ الإسلاميةِ الوجدانَ والفطرةَ لدى الكائن البشري بشكل عام.

ثانيا: الأقليات العرقية:

إن نظرة يسيرة في القرآن الكريم والسنة الشريفة تكشف، بما لا يدع مجالاً للشك، عن أن ظاهرة التمييز العنصري، ضد الأعراق المختلفة، والتي حصلت على مدى التاريخ الإسلامي، هي ظاهرة دخيلة على الإسلام، تخالف كافة أحكامه ومبانيه، فالقرآن الكريم صريح في ذلك، حين يقول: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}**([12]).

وقد أكدت الأحاديث النبوية الشريفة هذه الحقيقة في كثير من نصوصها, كقوله (صلى الله عليه وآله): (لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى), وقوله (صلى الله عليه وآله): (كلكم لآدم وآدم من تراب) ([13]), وقوله (صلى الله عليه وآله): (ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم)، وقوله (صلى الله عليه وآله): (الناس سواء كأسنان المشط)([14]).

كما أن سيرته العملية الشريفة في أمر سلمان الفارسي (رحمه الله) ظاهرة للعيان, حيث بلغ من تقريبه إياه, وتقديمه على الكثير من الصحابة, أن جعله من أهل بيته, حين أعلن قائلا: (سلمان منا أهل البيت).

وعهد أمير المؤمنين (عليه السلام) لمالك الأشتر, حين ولاه على مصر, مليء بالشواهد الدالة على ذلك, خصوصًا بملاحظة أن أهل مصر خليط من الأعراق المتفاوتة كما هو معلوم, كما أن سيرته العملية تدل على هذه الحقيقة أيضًا.

فمن الظلم الشديد, ومن الجفاء للحق والحقيقة، نسبة التمييز العنصري إلى الإسلام, نتيجة ما اقترفته الحكومات المتعاقبة, التي حكمت باسم الإسلام في الدولة الإسلامية، من مظالم وآثام بحق الناس مسلمين وغير مسلمين.

ومن هنا نجد أن القرآن في مجمل آياته التي تتحدث عن تشريع القوانين، يتوجه إلى الإنسان، ولا يتوجه إلى فئة خاصة من الناس، ليبين أن النوع الإنساني واحد أمام القانون الإسلامي في الحقوق والواجبات. وهذا بخلاف الكتب السماوية الأخرى، فإن العهد القديم في مجمل أسفاره كذلك، إنما يتوجه إلى فئة خاصة من الناس، وهم خصوص بني إسرائيل، فيجعلهم سادة الخلق، وسائر الناس عبيد لهم، سواء كانوا من إخوتهم الإبراهيميين أم من سواهم، ولهذا فإن الحقوق التي يتمتع بها الإسرائيليون لا ينالها غيرهم، كما أن الواجبات الملقاة على غيرهم، لا يتوجب عليهم أكثرها، وعلى هذا الأساس فإن العهد القديم عاجز عن أن يلبي طموح الإنسان من حيث هو إنسان في هذا العالم.

وأما العهد الجديد فلا يشتمل على منظومة تشريعية كما أسلفنا، وبالتالي فهو عاجز عن تلبية حاجات الإنسان أصلاً.

وأما المنظومة الغربية المعاصرة فالتمييز فيها ضد الأقليات العرقية والدينية ظاهر للعيان، لا تختلف مظاهرها في كافة الدول الغربية إلا بمستويات نسبية، والأحداث التي حصلت في الفترة الأخيرة في كل من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأميركية، واسبانيا وغيرها من بلاد الغرب، خير شاهد على ذلك، ولا تحتاج إلى مزيد بيان ولا إلى إقامة برهان.

ولا يصح الاعتذار عن هذه التجاوزات ضد الأقليات العرقية، وخصوصًا المسلمة، بأن تجاوزات الحكام، أو سياسات الدول، ربما تنحرف عن الفكر الصحيح والقانون السليم، إذ ما دام الإنسان هو مصدر التشريع فيها، فلا يؤمن على أن يغيّر فيها ويتلاعب، بحيث تخدم مصالحه التي يتوهمها أو يزعمها، وإن كانت على حساب الآخرين، وفي هذا المجال تتجلى مظاهر العنصرية ضد الآخرين بأوضح صورها, وما يحصل ضد الفلسطينيين، من مذابح وتقتيل وإنكار حقوق، مدعوما من سائر الدول الغربية، ماثل أمام أعين الناس، وإن كان لهذا التمييز وإنكار الحقوق أبعاد دينية ناشئة من تعاليم العهدين، بالنسبة إلى أرض فلسطين، وهو كاشف عن أن الإنسان الغربي لم يستطع أن يتحرر من قوانين العهدين كما يزعمون.

وأما في النظام الإسلامي فلما كان التشريع خارجًا عن سلطة الإنسان وأهوائه، وهو من مختصات الشارع المقدس، فيبقى مانعًا من التجاوزات والاعتداءات والمظالم، وعلى فرض حصولها فإن التشريعات والقوانين الإسلامية تظل ميزانًا للحكم، سلبًا أو إيجابًا، على القائمين على سياسات الناس باسمه، وبهذا تشكّل التشريعات الإسلامية خير ضمان لسلامة الحكم في أي قضية من القضايا.

**يتبع ←**

[1]- إنجيل متى:5/38-41.

[2]- انجيل متى:7/1.

[3]- رسالة رومية:13/1-7.

[4]- رسالة بطرس الأولى:2/11-21.

[5]- إنجيل متى:5/36-37.

[6]- سفر اشعيا: 11/6-9.

[7]- سفر اشعيا: 65/34-35.

[8]- سورة الأنعام، من الآية 38.

[9]- سورة النحل، من الآية 125.

[10]- سورة الممتحنة, آية 8-9.

[11]- سورة البقرة، من الآية 256.

[12]- سورة الحجرات, آية 13.

[13]- بحار الأنوار، العلامة المجلسي: 73/350 (خطبة النبي (ص)في حجة الوداع)؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 17/281؛ وروي (باختلاف يسير) في كنز العمال:1/258.

[14]- بحار الأنوار: 75/251، ح99.

.

## تتمة مقال = الأقليات في الدولة الإسلامية

← ثالثا: أهل الذمة:

انطلاقًا من مبدأ المساواة بين الناس، الذي أقرّه الإسلام، وأشرنا إلى بعض النصوص الواردة فيه، تبدو مسألة أهل الذمة منسجمة مع هذا المبدأ العام، وقد سلط أمير المؤمنين (عليه السلام) الضوء عليها، في عهده لمالك الأشتر، حين ولاه على مصر، بقوله: (ولا تكونن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق)[1]. كما أبدى ألمه الشديد لعدم قدرة جنوده على الدفاع عن النساء الذميات، حين كان رجال معاوية يغيرون عليهن بسلبهن، فقال لأصحابه -مساويًا بين المرأة المسلمة والمرأة الذمية-: (ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة، فينتزع حِجْلها وقُلْبَها وقَلائدها ورعاثها ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين، ما نال رجلاً منهم كَلْمٌ ولا أُريق لهم دم، فلو أن امرءًا مسلمًا مات بعد هذا أسفًا ما كان به ملومًا، بل كان به عندي جديرًا)[2].

وهنا لا بد من بيان الحكمة في جعلهم أهل الذمة، أو معاهدين، بحسب تعبير أمير المؤمنين (عليه السلام)، مع أن حق المواطنة يعني أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين من حقوق وواجبات، وحق المواطنة ينافي كونهم أهل ذمة، إذ المتبادر من هذا العنوان أنهم لا حول لهم ولا قوة في دولة الإسلام، وأن عليهم دفع الجزية، وكفى به ذلا لهم، كما يتصور معارضو الدولة الإسلامية.

وفي جواب هذه الإشكالية نقول:

إن أي نظام من أنظمة الحكم يفترض أنه توضع أحكامه موضع التنفيذ، بواسطة العارفين بها والمؤمنين بصحتها، وليس من المنطقي أن يؤتمن على القيام بهذه المهمة من لا يؤمن بصحتها وفاعليتها، ولا الجاهل بأبعادها، ولا العامل على إلغائها وإبطالها، وهذه قاعدة عقلائية لا يختلف الناس في صحتها، لو خلي بينهم وبين وجدانهم السليم، وعلى هذا الأساس يمكن فهم وتفسير قول أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن أحق الناس بهذا الأمر - أي أمر الحكم - أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه).

ومن الظاهر أن غير المسلمين لا يرون في حكم الإسلام حكمًا إلهيًا، ولهذا يراهم الإسلام غير قادرين على تنفيذ أحكامه، الشاملة لسائر نواحي الحياة، وقبول الإسلام لتصديهم لهذه المهمة يعني، في بعض جهاته، أنّ الإسلام يدعوهم إلى التناقض مع ذواتهم، لأن معنى ذلك أنه يدعوهم إلى إجراء ما لا يؤمنون به، وتنفيذ ما يخالف التزاماتهم، وهو نقض للحقيقة الإسلامية القائلة بأنه دين الفطرة **{فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}**[3]، كما أن الإسلام قد أقرّ قاعدة الإلزام العقلائية، القائلة (ألزموهم بما ألزموا به أنفسهم)، انسجامًا مع قانون الفطرة المذكور.

هذا بالإضافة إلى أن أهل الكتاب الذين هم أهل الذمة في الإسلام، إما نصارى أو يهود، ولكل من الطائفتين نظرة إلى نظام الحكم، بنحو مطلق، لا تتفق ونظرة الفئة الأخرى.

أما المسيحيون:

فإن ديانتهم تحظر عليهم التدخل في شؤون الحكم، وتأمرهم بطاعة الحاكم، مهما كان دينه ومذهبه ونظام حكمه، وقد تقدّم ذكر بعض الأحاديث الإنجيلية، المنسوبة إلى السيد المسيح (عليه السلام)، بل إنه في أشد ساعة من حياته، وحينما جاء إليه الجنود وهم يحملون سيوفًا كثيرة ليعتقلوه، ويسوقوه إلى رؤساء الكهنة، انبرى أحد تلاميذه (واستل سيفه، وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه، فقال له يسوع ردّ سيفك إلى مكانه. لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون)[4]، في إشارة منه (عليه السلام) إلى أنه يحظر على أتباعه استخدام السلاح والدخول في حرب ضد الآخرين، وإن كانت دفاعًا عن سيدهم.

ومما يدل على صحة هذا المبدأ عند المسيحيين ما ورد في رسالة بطرس الأولى، التي وجّهها إلى المسيحيين، فإنه بعد ما بين لهم أن وظيفتهم إكرام الملك والالتزام بأوامره، وأنه لا يحق لهم الخروج على طاعته، قد ذكر لهم قاعدة كلية، فقال: (لأنكم لهذا دعيتم. فإن المسيح تألم لأجلنا تاركًا لنا مثالا لكي تتبعوا خطواته)[5].

وهذا المضمون نفسه قد ورد في تعاليم بولس، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث زعم أن السلطان مفوّض من الله تعالى، ومن يخالف تعاليمه فقد حارب الله، يقول بولس: (لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة. لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله، حتى إنّ من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة)[6]، وتقدمت الإشارة إلى ذلك.

فالمسيحي إذن مأمور بعدم التصدي لأي موقع من مواقع الحكم والسلطان، فإلزامه بما لا يعتقد، دفع له نحو الهاوية بزعمه، وهنا تظهر قاعدة الإلزام بأجلى صورها، حيث أقره الإسلام على ما يعتقد أن المسيح ودينه قد أمره به، وهذا في الحقيقة شهادة عظيمة في صالح الإسلام، ولا يصح بأي حال من الأحوال أن تستخدم ضده.

وأما اليهود:

فمضافًا إلى أنهم لا يؤمنون على تسلّم أي مقام أو موقع، نتيجة ما أثبتته الوقائع على مر التاريخ، من سوء سرائرهم، وخبث نواياهم، ودناءة سلوكهم تجاه سائر الشعوب الأخرى، بل إن في النصوص التوراتية ما هو صريح في الحث على إبادة الآخرين، والقضاء على كل ما يمت إليهم بصلة، والواقع الذي نراه في أرض فلسطين تحت اسم (دولة إسرائيل) خير شاهد على عدم ائتمانهم في التصدي للأمور العامة، بل تراهم يعملون على التخريب والفساد، في كافة المواقع التي يشغلونها في أي مكان من العالم، ولعل نظرة يسيرة في كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) خير دليل على ذلك.

مضافًا إلى ذلك، فإن اليهود مأمورون بالابتعاد عن الحكم والقضاء بنص التوراة، عند ظهور الإسلام، وهذا الأمر جارٍ على المسيحيين أيضًا، وبأن يسلّموا مقاليد الأمور إلى أهلها، وهنا نذكر نصين من التوراة:

النص الأول:

يقول حكاية عن يعقوب (عليه السلام) حين جمع أولاده ليخبرهم بما يصيبهم في آخر الأيام: (لا يزول قضيب من يهوذا أو مشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون ويكون له خضوع الشعوب)[7].

لقد تباينت الأقوال، وتفاوتت الآراء، في ما هو المراد في هذه النبوءة تباينا حادا، وبحسب تعبير الآباء اليسوعيين: (النص ومعناه موضوعا جدل. على كل حال، يدور الكلام على مجيء شخص تكتنفه الأسرار و(تطيعه الشعوب) فالنبوءة تنتظر ملكًا مسيحيًا مثاليًا)[8]، ولهذا فقد ترجم كلمة شيلون في النص بـ(إلى أن يأتي صاحبها)، وبدل عبارة ويكون له خضوع الشعوب ورد في الترجمة السبعينية والسريانية والفلغاتا (وإياه تنتظر الأمم)[9].

وعلى كل حال، فالمعنى الحرفي للكلمة (إلى أن يأتي من له الأمر)[10]. وحاول بعضهم أن يعتبرها لقبًا للمسيح (عليه السلام), رغم اعترافه بأنها لم تستعمل كلقب له في غير هذا المورد, وأنها ليس لها معنى واضح ككلمة[11].

إن هذا النص رغم ما يكتنفه من غموض وإبهام، إلا أنه شبه صريح في الدلالة على أنه إذا جاء شيلون انتهى حكم بني يهوذا.

وما تجدر الإشارة إليه هنا, أنه رغم هذا الاختلاف الشديد في تفسير النبوءة, ومعرفة ما هو المراد منها, إلا أن الجميع متفقون على أن حكم بني يهوذا مؤقت لا استمرار له, وأنه مرهون بمجيء من له الأمر, فإذا جاء لم يبق لبني يهوذا أي حق في الملك. ولازم ذلك أنهم ملزمون بطاعة من له الأمر.

إلا أن التوراة السامرية قد ذكرت في النص بدلا عن شيلون سليمان, وأنه هو المراد بالنبوءة, وهو مخالف لكافة الترجمات كما أشرنا إليه، هذا بالإضافة إلى أن الوقائع التاريخية لا تساعد على تصديقها، لأن لازمه أن تكون حكومته (عليه السلام) نهاية الحكومات الإلهية، ويعني نهاية العالم، مع أنه (عليه السلام) كان من نسل يهوذا لا

من نسل غيره، ومعه لا يبقى للنبوءة معنى واضح..

وعلى كل حال، فإذا جمعنا هذا النص إلى النص الثاني يظهر أن المراد هو النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) وشريعته.

النص الثاني:

(أقيم لهم نبيا من وسط أخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه)[12].

وهذا ما لا ينطبق إلا على النبي (صلى الله عليه وآله) الأعظم وشريعته, حيث لم يرد أن أحدا من إخوة بني إسرائيل, سواء من الإسماعيليين أم من غيرهم, قد جاء بشريعة عامة وشاملة سواه (صلى الله عليه وآله), وهو يدل على أن أهل الكتاب مأمورون باتباعه بنص كتابهم المقدس.

فالإسلام هو القادر على حكم الجماعات المتفرقة، والمحافظة على طقوسها وأفرادها وحقوقهم، من أن ينالها أحد بسوء، إن هم التزموا بالقوانين المرعية فيه، ولم يسعوا فسادًا في الأرض.

وأما الملحدون والوثنيون, فمن الطبيعي أن لا يكون لهم موقع في الدولة الإسلامية, بعد الفراغ عن أن الحكومة في الإسلام تعمل على تطبيق أوامر الله تعالى, وتسعى إلى تحقيق الحق والعدل من منظور إلهي, ذلك أن مواطنيها هم الذين يؤمنون بمولويته تعالى, في أقل الفروض, وإن اختلفوا في ما وراء ذلك من اعتقادات, حتى لو لم يؤمنوا برسول الله (صلى الله عليه وآله) فقد حفظ الإسلام لهم كامل حقوق المواطنة.

فمن لا يؤمن بمولويته وحاكميته الحقيقية تعالى، معاند بطبعه لهذه القوانين والشرائع, ولهذا فهو لا يألو جهدا في أن ينقَضّ على نظام الحكم هذا, عندما تتاح له الفرصة, وعلى الأقل لا يؤمن في نفسه من عدم الانقضاض, وهذا في الحقيقة غير مختص بالنصوص الإسلامية, بل نجد ما يدل عليه في النصوص المقدسة عند اليهود والمسيحيين أيضا، وهو مبثوث في مختلف أسفار العهد القديم، حيث كان العبرانيون يقاتلون بأمر الله، فإذا انتصروا نهبوا معسكر العدو، وسلبوا الموتى، وأحيانا كانوا يقتلون أو يشوهون الأسرى، وفي أكثر الأحيان كانوا يصيّرونهم عبيدًا[13]، والنصوص الدالة على وجوب إزالة كل ما يرتبط بالوثنيين من أناس ومعابد وهياكل وتماثيل والقضاء عليها كثيرة جدا في العهد القديم.

وعليه فلا معنى لأن تحميه الدولة، التي يرى نفسه عدوًا لها, وتقوم على شؤونه وحمايته, إلا من باب إصلاح نفسه, وتأليف قلبه على الحق إن أمكن ذلك, كما ربما يشير إليه قول أمير المؤمنين (عليه السلام): (فإنهما صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق), فإن كونه نظيرًا في الخلق أعم من أن يكون مؤمنًا بالله أو غير مؤمن, كتابيًا كان أو غير كتابي, حيث بين (عليه السلام) فيه أن الملاك في ثبوت الحق كونه إنسانًا يخضع لنظام

الإسلام، بل الآية القرآنية الشريفة **{لا ينهاكم الله.. الآية}** تشير إلى هذا المعنى أيضا، حيث لم تقيد الأمر بأهل الكتاب، لأن الحقيقة التاريخية تثبت أن الذين أخرجوهم أو لم يخرجوهم هم مشركو مكة والعرب، ولم يكونوا من أهل الكتاب. وعلى كل حال فإن للبحث في هذا الجانب مجالاً واسعًا.

ضريبة الجزية:

إن كل دولة من الدول تحتاج إلى نفقات وخدمات، تمكنها من القيام بمهامها تجاه شعبها، إذ إن عليها الكثير من النفقات والمصارفات، في سبيل إصلاح شأن الناس على كافة المستويات، الاقتصادية والتربوية والعمرانية والعسكرية والاستشفائية والأمنية وغيرها، ولهذا فهي بحاجة إلى موارد متعددة تلجأ إليها من أجل تحصيل هذه النفقات.

والضريبة من جملة الموارد المادية التي تؤمنها الدول، وهي مقدار معين من المال يدفعه المواطن للدولة، بدل الخدمات التي تؤمنها الدولة له. وليس من المنطقي أن يتمتع المواطن بحقوق، دون أن يترتب عليه أي واجب، في الدولة التي يعيش فيها وتؤمن له كافة مقتضيات الراحة والهناء. وهذا المبدأ قد أقرته كافة الشرائع الإنسانية والإلهية على مدى التاريخ قديمه وحديثه.

من ناحية أخرى فإن المواطن يحس، عند دفع الضريبة، أنه شريك ومساهم في بناء الدولة، ومسؤول عن حمايتها، وصونها من كل ما يمكن أن تتعرض له، يعنيه كل ما يحصل فيها، وبالتالي يكون جديرًا بمطالبة الدولة، والتظلم لديها عند إحساسه بانتقاص أي حق من حقوقه، وهذا أمر فطري في الإنسان، فإن الحياة حقوق وواجبات، منافع ومسؤوليات، مغارم ومغانم.

وقد أقر الكتاب المقدس بعهديه هذه الضريبة، وأطلق عليها اسم الجزية[14]، بل لقد اعتبرها كاتب التوراة فريضة على كل ذكر يهودي جاوز العشرين من عمره، واعتبرها تقدمة للرب، وحدد مقدارها، ومورد مصرفها على أنه لنفقات خيمة الاجتماع[15].

وبعد خراب أورشليم، ألزم الامبراطور فاسبسيان جميع اليهود، في أنحاء الامبراطورية أن يدفعوا لهيكل جوبيتير في رومية، الجزية التي كانوا يدفعونها للهيكل[16].

وذكر كاتب متى من الانجيليين أن السيد المسيح (عليه السلام)، قد دفع الجزية[17]، ولم يتعرض لها أحد من الانجيليين سواه، وعلل ذلك بعضهم بأنه تعرض لذكرها لأنه كان جابيًا للضرائب. وفي علة دفع المسيح الجزية، وإلزام المسيحيين بها، يقول: (نحن كشعب الله غرباء على الأرض، لأن ولاءنا إنما هو لملكنا الحقيقي، يسوع، ومع ذلك علينا أن نتعاون مع السلطات، وأن نكون مواطنين ملتزمين، فالسفير لدولة أخرى يراعي القوانين المحلية لكي يحسن تمثيل من أرسله، ونحن سفراء المسيح، فهل أنت سفير صالح له في هذا العالم)[18].

وهذا التعليق أو التعليل، يدل دلالة ظاهرة، على أنه ليس للمسيحي أي شغل، في أعمال الدولة والحكم، وعلاقته بها مجرد تعاون معها، وأما دولته وولاؤه الحقيقي فهما للسيد المسيح (عليه السلام)، الذي صرح قائلا: (مملكتي ليست من هذا العالم)[19]، فعلى المسيحي إذن أن يراعي القوانين التي تقرها الدول، ليحسن تمثيل السيد المسيح (عليه السلام). وقد استقى المُعلّق هذا المعنى من نصوص بولس المقدسة عندهم، حيث يقول: (لذلك يلزم أن يخضع له (أي للملك والسلطان) ليس بسبب الغضب فقط بل أيضا بسبب الضمير، فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضا. إذ هم خدام الله مواظبون على ذلك بعينه، فأعطوا الجميع حقوقهم الجزية لمن له جزية. الجباية لمن له الجباية)[20]، فقد اعتبر الجزية حقا من حقوق السلطان، مهما كان معتقده ودينه، ومعنى ذلك أن المسيحي ملزم بدفعها له.

وعليه، فإقرار الإسلام قانون الجزية على أهل الكتاب لا يشتمل على أي إذلال لهم، أو حط من كراماتهم، كما يزعم ذلك البعض، بل ألزمهم بما ألزمتهم به التوراة والسيد المسيح (عليه السلام) وبولس، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإن الإسلام قد خفّف عنهم، وجعل الجزية في مقابل القيام على خدمتهم وحمايتهم، والذود عنهم، بعد ما أبعدوا أنفسهم، على المستوى التشريعي، عن التصدي لمثل هذه الأمور، ولعل خير من يمثل هذا الاتجاه بين المسيحيين في العصر الراهن، هم شهود يهوه، الذين ينشطون في حركة التبشير، ويحظرون على أتباعهم مبدأ الخدمة العسكرية والأعمال الحربية، التزاما منهم بنصوص الكتاب المقدس بحسب زعمهم.

إلا أن ذلك لا يعني أن الضريبة خاصة بأهل الكتاب، فإن على المسلمين أنواعًا أخرى من الضرائب، وهي في نوعها وكمها تصل إلى مستويات أعلى بكثير، من قيمة الجزية المدفوعة من أمثال الخمس بأنواعه، والكفارات وغيرها. غاية الأمر أن تسمية الضريبة المتوجبة على أهل الكتاب جزية، هو انسجام مع ما أطلقوه أنفسهم عليها.

ومعنى كل ما تقدم، أن الإسلام قد تعامل معهم، كما تعامل مع المسلمين تماما، فاعتبرهم كامِلي المواطنة، في الحقوق، مع أن الواجبات المترتبة على المسلمين أشد وأكبر، إذ لا يمكن القول بأن من يعفى من الخدمة العسكرية، والمشاركة في الأعمال الحربية دفاعا عن ثغور الدولة، ويحق له أن يفعل ما يشاء، وأن يمتلك ما يشاء، مع مراعاة حاله في اعتقاداته وعباداته بأنه مواطن منقوص الحقوق، إن لم نقل بأنه يتمتع بحقوق أكثر من المسلمين، ما دام ملتزما حدود القانون الذي يحميه، فمواطنته في الدولة الإسلامية من قبيل الإقامة الدائمة، غير القابلة للعزل، إلا إذا أخل بنظام الحكم، بحسب المصطلح المعاصر.

وتبقى نكتة في المقام، وهي أن وصفهم بالصَّغار في الآية الشريفة **{حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}** [21]، ليس تصغيرا لشأنهم وحطًّا من كراماتهم من جهة أنهم أهل الكتاب، أو أنهم غير مسلمين، بل منشؤه إعلانهم الحرب على المسلمين، وتمنّعهم عن دفع الجزية أو الضريبة، استكبارًا وعلوًا، فصغارهم من جهة إلزامهم بدفعها مع تمنّعهم عنها، والفرق كبير بين المقامين كما لا يخفى.

[1]- نهج البلاغة، شرح محمد عبده: 3 /84.

[2]- نهج البلاغة, شرح محمد عبده, ج1,ص68.

[3] - سورة الروم، من الآية30.

[4]- إنجيل متى:26/47-52.

[5]- رسالة بطرس الأولى: 2/13-21.

[6]- رسالة بولس إلى اهل رومية: 13/1-2.

[7]- سفر التكوين: 49/10.

[8]- العهد القديم، ص145، تعليقة رقم (6).

[9]- السنن القويم في تفسير العهد القديم، ج1 ص276.

[10]- التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص121.

[11]- التفسير الحديث للكتاب المقدس, سفر التكوين, ص251.

[12]- سفر التثنية: 18/18-19.

[13]- قاموس الكتاب المقدس, ص296.

[14]- قاموس الكتاب المقدس, ص260.

[15]- سفر الخروج: 30/12-16.

[16]- قاموس الكتاب المقدس, ص260.

[17]- إنجيل متى: 17/ 24-26.

[18]- التفسير التطبيقي للكتاب المقدس, ص1930.

[19]- إنجيل يوحنا:18/36.

[20]- رسالة رومية: 13/5-7.

[21]- سورة التوبة, من الآية 29.

## الهوامش

* باحث إسلامي ومدرّس في الحوزة العلمية.

# اللهجات العامية أصولها ومصادرها

د.حسن جعفر نور الدين

## والفصيح في العامي

د. حسن جعفر نور الدين*

## مقدمة

الإقدام على هذا البحث (اللهجات العامية أصولها ومصادرها، أو الكلمات الفصحى في ألفاظ العامة)، وقد سبق لكثيرين من الأدباء والعلماء أن خاضوا في هذا الميدان، وقدّموا أعمالاً موفّقة تسترعي الانتباه، منهم العلامة الشيخ أحمد رضا في كتابه (ردّ العامي إلى الفصيح)، والذي جاء على هامش كتابه الجامع (متن اللغة)، والباحث الدكتور أنيس فريحة في كتابه (معجم الألفاظ العامية في اللهجة اللبنانية)، والسيد رشيد عطية في كتابه (معجم عطية في العامي والدخيل) وغير ذلك من الكتب والدراسات والبحوث، والتي شجّع عليها ودعم كثيرًا منها مجمع اللغة العربية في كل من القاهرة ودمشق وبغداد.

والمتبصّر، أو المتتبع لحركة التخاطب بين الناس في أعمالهم ووظائفهم ومجالسهم وممالحاتهم، يُدرك أنه منذ القديم كان هناك اختلاط بين العامية والفصحى، والبشر - قبل أن تستقيم لكل جماعة منهم لغة فصيحة عامّة متوافَق عليها ومعتَمدة مكرّسة - كان لهم لهجات عامية متداولة بين أفراده يتفاهمون بواسطتها على مجمل وسائل حياتهم ومنافعهم وعلاقاتهم، إنها اللغات أو اللهجات المحكية التي لا يخلو شعب على وجه الأرض منها، وهي التي عبرها ومن خلالها نمّى كل شعب لغته.

والملاحظ أن كثيرًا من الألفاظ العامية- إن لم يكن معظمها- نابع من أصول فصيحة، إذ يتداولها العامة ويُخضِعونها لإمالاتهم وتفخيماتهم واختزالاتهم ومقاييسهم وتأثيراتهم، بما يداخلهم من لهجات ولغات أخرى بفعل العلاقات الشخصية الاجتماعية والإنسانية والعلاقات المتنوّعة، فيلتبس العامي بالفصيح، دون أن نُنكر وجود لهجات عامية مَحضة، لا تمتّ إلى الفصحى بصلة، وهي نتيجة توارث وتعاقب الأجيال، أضف إلى ذلك ما يَفِد إلى اللغة من ألفاظ وكلمات ومصطلحات عبر التاريخ، محلية كانت أم أجنبية.

### الاشتقاقات

وكما يشتق اللغويون من اللغة الفصحى كلمات شتّى اتفقوا على تسمية كلّ منها، ووضعوا له ميزانًا خاصًا على مقاسه، فإنهم يصرّفون الكلمات فيضعون لها موازين متنوعة، مثال ذلك أن تأتي إلى كلمة (ضَرَبَ) مثلاً، فتبني منه مثل (جَعْفَر)، فتقول (ضَرْبَب) ومثل (مِمْطِر) -ضِرْبِب-، ومثل (دِرْهَم) – ضِرْبَب-، ومثل (عَلِمَ) - ضَرِبَ-، ومثل

(ظرف) ضرْب، مما يدل على إمكانية تصريف الكلمة في وجوه كثيرة.

كذلك في الاشتقاق، ألا ترى أنك تجيء إلى (الضَرْب)، الذي هو المصدر، فتشتق منه الماضي (ضَرَبَ)، ثم المضارع (يَضْرِبُ)، ثم الأمر (اضْرِب).

ثم تقول في اسم الفاعل (ضارب)، واسم المفعول (مضروب)، واسم المكان (مَضرِب) على وزن مَفعِل، واسم المرّة (ضَرْبَة) على وزن فَعْلَة، واسم الآلة (مَضرَب) على وزن مَفعَل**[1]**.

ثم لجأوا إلى العامية نفسها، فصاغوا منها بل توافقوا ضمنًا على اشتقاقات عامية أصبحت مع مرور الزمن لغةً وقاموسًا يتوارثه الأبناء والأحفاد، ثم إنه تكرّس في ميادين التداول والتخاطب في أمور الحياة كلها.

ومن صور التخاطب العامي مثلاً، تحويل جاء الفصيحة إلى (إجَا) في العامية، أو (إجي) في المناطق التي تلجأ إلى الإمالة، ثم جمعوها على (إجو) أي جاؤوا، ثم صاغوا المضارع إلى (يِجِيْ) للفرد، و(يِجُوا) للجمع، وحوّلوها إلى المستقبل بوضع أدوات خاصة عامية مثل: (بَدّن يجو، بُكرا بيجو، هَلّق بيجوا)، وهي في الفصحى (بدا أنهم سيجيئون، أو غدا يأتون أو يجيئون).

وإذا أرادوا الزمن البعيد قالوا: (بعدين بيجو) أي بعد آن، وهي تقع بين تَوقُّع المجيء وعدمه.

ولكل فعل قياسه العامي الخاص، (فضرب) التي سبق الإشارة إليها تختلف موازين اشتقاقاتها عن (جاء)، بحيث إن هذه الاشتقاقات العامية تصبح مُسلَّمات متداولة، يتلقاها الطفل من أمّه منذ أشهره الأولى، ويتلفّظ بها أولاً وفق قدرته على تقليدها ومن ثمّ يستقيم له لفظها بعد أن تنمو إمكاناته الجسدية والعقلية، تلك هي لغة الطفولة الأولى والتي سرعان ما تصبح قاموس ذكريات عندما ينتقل الطفل إلى عوالمه الجديد خارج البيت.

فضرب في الماضي تصبح في العامية (ضرَبْ) مع تسكين الباء، وإذا عبَّروا عن المضارع أضافوا أدوات خاصة مثل: (عَمْ يضرب)، و(بدو يضرب) للمستقبل، وللمؤنث (ضَرَبِتْ)، بدل تَضرُب، وفي الأمر الفصيح (اضرب) (ضروب)، وللمؤنث (ضرُبي)، وفي اللغة الطفولية يعبر عنها الطفل بكلمة (دِدّي)، أو (أُبُبْ)، كذلك يتعوّد أن يلفظ العبارات السهلة عذبة النطق كقوله: (أُح) للتعبير عن السخونة، و(بَح) للتعبير عن عدم وجود الشيء، و(نَح) عن طلبه للحلويات، و(دَح) أو دحّا) للتعبير عن الثوب الجديد، أو (بُع) عند تخوفه من شيء، و(كُخي) أو (أَع) للتعبير عن تقزّزه من الأقذار أو الأوساخ، و(مَع) للإشارة إلى الماشية، أو(تَع) مختصر تعال، ولطلب الماء عند إحساسه بالعطش (مبُو، أو مبُوّا)، ولتعبيره عن الخوف من الحيوان خاصة الكلب (عَوْ).

## أنواع الكلام العامي

وبرأيي هناك نوعان من الكلام العامي:

1- الكلام العامي النابع من الفصيح، والذي تُحوّله اللهجات تبعًا لما يتوافق عليه الناس ويتوارثونه ويعتمدونه وسائل للتخاطب، كما أوردنا سابقًا من الأفعال وهو العامي المَحلّي.

2- أما النوع الثاني فهو العامي المُعرّب، ذو الأصول الأجنبية، والذي أدخله اللغويون بعد التوافق عليه إلى حرم اللغة وأخضعوه لمقاييسها وأوزانها العربية، فكلمة (تلفون) مثلا، لفظة أجنبية إلا أنها عُرّبت وأصبحت متداولة- حتى لو لم يكن هناك توافق رسمي عليها في مجامع اللغة العربية- فيكفي التوافق والتداول الشعبي عليها، والذي يفرض سلطة الكلمات مع مرور الزمن.

فكلمة تلفون مثلاً، وهي اسم آلة التحادث في اللغة الأجنبية، عندما عرِّبت أخضعت لمقاييس اللغة، فقلنا في الماضي (تَلْفَنَ) وفي المضارع (يُتَلْفِنُ)، وفي الأمر (تَلْفِنْ) والمصدر (التَلْفَنَة)، والجمع تَلِفونات، مُتَلْفِنون، مُتَلْفِنات، وإذا أوغلنا في العامية نقول: تَلْفَنْ، عم يتَلفِن، بدو يتَلْفِن، تَلْفِنْ، تَلفْنوا، تَلْفَنّا، تَلفَنوا، تَلفني، تَلْفَنِتْ.

كذلك كلمة بستان، وهي كلمة فارسية مؤلفة من (بو) يعني الرائحة العطرية، و(ستان) أي مكان، فهي كلمة مركبة من كلمتين، وقد عرّبها اللغويين، وصارت تعني كما هو معلوم للجميع الحديقة ذات الأشجار الخضراء العطرة، لذلك نقول (بَسْتَنَ) إذا اشتغل في البستان وزرعه واعتنى به، كذلك (يُبَسْتِنُ، بَستِنْ، بساتين، بِسْتَنْجي)، و(البَسَاتِنة) عائلة آل البستاني الذاهبة بعيدًا في اللغة والأدب.

ومن الطريف أنني كنت مرة أحدِّث شخصًا عن مشتقات (البستان) وهي فارسية الأصل، فقال لي (بستنك الله)، قلت له (تبستن يا هذا)، يعني كن كالبستان أخضرَ عَطِرًا.

ولا تخضع جميع الكلمات الدخيلة والمُعرّبة إلى المقاييس اللغوية العربية نفسها، فالبعض منها لا يستجيب لجميع إمكانات الاشتقاق إلا أنه يبقى مُعرَّبًا، فكلمة (راديو) مثلا، دخيلة وهي فرنسية، ولا يمكن إخضاعها لإمكانات الاشتقاق جميعها، لأن طبيعتها التركيبية لا تستجيب لنظام التناسل اللغوي العربي، إنما نُدخل عليها - لتصبح طيّعة - كلمة عربية فيسهل استعمالها، كأن نقول: فتحت الراديو، اشتريت راديوات كتيرة، عندي راديوان، الرّادْيَوِيُّون، أي الذين يهتمون بشؤون الراديو.

ورغم ذلك تبقى الكلمة أقرب إلى أن تكون دخيلة، لأنها بقيت كما هي ولم يجرِ عليها أي تغيير اشتقاقي كالذي رأيناه في ما سبق.

وقِس على ذلك كلمات أخرى تقع في خانة واحدة مع كلمة (راديو)، إذ لم يجد اللغويون إمكانية لإخضاعها لنواميس اللغة العربية ومدلولاتها، فبقيت كما هي باستثناء تجاوزات ضئيلة تلائم الصيغ العربية، مثل: صليب- كنيسة- هيكل- من الآرامية، وإبريق واستبرق من الفارسية، ومن اليونانية أسطول، إسفنج.

فقالوا: (إبريق- إبريقان- أباريق)، (كنسية - كنيستان - كنائس- العمل الكنسي)، (صليب - صليبان - صلبان - الصلب)، (أسطول - أسطولان - أساطيل)، (زنديق - زنديقان - زنادقة - الزندقة)، (إسفنج - إسفنجان - إسفنجات - الإسفنجية)، (هيكل - هيكلان - هياكل - الهيكلية).

وحاول العرب إخضاع ألفاظ كثيرة لبعض الاشتقاقات العربية كما نرى في كلمة (نوروز) فقالوا: (نورز - يُنورِز - النورزة) إلا أن هذا فيه شيء من التعسّف، كذلك في (كورس - يكورس - الكورسة - الكُوراس).

حتى في الكلمات العلمية، أجاز العلماء قضية الجمع والتثنية شرط أن لا تمس جوهر اللغة وسلامة الألفاظ وعذوبتها، كقولهم (ريبورتاج - ريبورتاجان - ريبورتاجات).

حتى أن الكلمات المعرّبة نهائيًا مثل (سوسيولوجيا) المعرّبة بعلم الاجتماع، حيث يُصرّ الباحثون على إيرادها منقولة كما هي، ثم يتصرّفون بها في بعض الوجوه، فيقولون (سوسيولوجيا - السوسيولوجيون - سوسيولوجيّ - السوسيولوجية)، (سمفونية - السمفوني - السمفونيون - السمفونيا - سمفونيات)، وهذه كلمات صرف دخيلة، إلا أن الوقوع في عشق اللغات الغربية جعل الكثيرين يستعيضون عن الكلمات المعرّبة بوضع الدخيل الأصلي، إما كما قلت لهوسهم بهذه اللغات، وإما لعرض عضلاتهم اللغوية وتبيان معرفتهم الشخصية بشيء من هذه اللغات، وإما لظنّهم أن الإكثار من عرض المفردات الدخيلة هو إثراء للبحث، وهذا ادعاء ليس في محله إذا كان موجودًا.

## مواقع الكلمات

والمعلوم أن اللغويين قسّموا الكلمات من حيث مكانتها إلى خمسة مواقع:

1- الكلمات العربية النقيّة الصافية أصلاً وفصلاً.

2- الكلمات المُعرّبة: وهي الألفاظ الأجنبية التي غيّرها العرب عن طريق الزيادة أو النقصان أو القلب، ثم ادخلوها إلى اللغة العربية، وأخضعوها لقواعدها اللغوية، مثل (الجلنار - الجرموق - الأوبرا - الإبريق - الطبلية).

3- الكلمات الدخيلة: وهي الألفاظ الأجنبية التي دخلت اللغة العربية دونما تغيير، مثل (الأوكسيجين - التلفون - الحذاء - الطربوش - الطن - الطوربيد).

4- الكلمات المحدَثة: وهي الألفاظ التي استعملها العرب واعتمدوها في العصر الحديث، نتيجة وفرة المصطلحات العلمية التي تُولد كل يوم مثل (الطابق - المنطاد - المطار - الطائفية - الجامعة - المجتمع - الركن).

5- الألفاظ المولّدة: وهي الكلمات التي استعملها الناس قديمًا وما زالوا يستعملونها إلى اليوم مثل (التبّانة، أي المجرة - الطراز - الطفل - التختة، وهي السبّورة أو مقعد خشبي يجلس عليه التلاميذ).

وقد استخدمت وسائل أخرى أصبحت معروفة لدى كل باحث لغوي مهتم بشؤون اللغة وهمومها، وقد أشير إليها في بحوث سابقة، وهي الاشتقاق الصغير، ثم الكبير والأكبر، ثم النحت، وهو الإتيان بكلمة من كلمتين، وغني عن القول ما لهذه الوسائل من أهمية على صعيد إثراء اللغة في شقيها الفصيح والعامي**[2]**.

## بين فصاحة اللفظ وفساده

لاحظ علماء اللغة منذ القديم اختلافات لهجية بين القبائل والشعوب، وفضّلوا إذّاك ألفاظًا على أخرى لأنها في نظرهم أفصح وأصوب، وبذلك حاولوا تبيين ما هو فصيح وما ضعيف منكر، وما هو رديء مذموم، كما أنهم اهتمّوا بالخلافات اللهجية التي كانت سائدة بين مناطق شبه الجزيرة العربية كأن تقول قبيلة: (البُر)، وأخرى تقول (القمح)، وثالثة (الحنطة)، وقبيلة تقول: (استَحَيْت) وأخرى (استَحْيَيت).

وقد حاول علماء اللغة عند جمعها التحرّي عن مبلغ فصاحة اللفظة وسلامتها من الفساد، لذلك لجأوا إلى لهجة قريش باعتبارها أفصح العرب وأصفاهم لغة، لذلك انتسب إليها النبي (صلى الله عليه وآله)، وكان يوصي الكتبة (كتبة الوحي) إذا ما اختلفوا في شيء أن يرجعوا إلى لغة قريش لأن القرآن نزل بها.

وأفضل ما قيل في فصاحة قريش كما جاء في كتاب الألفاظ للفارابي: كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعًا، وقد استفادت اللغة من تغذية الأنصار لها من كلمات لم تكن موجودة فيها عند الوضع، وتصرّفوا بكلمات كثيرة مثل (دناريوس) فحذفوا كلمة (يوس) وأبقوا على (دينار) وهو العملة المعروفة، وحوّلوا كلمة (دراخما) وهي عملة معروفة أيضًا إلى (درهم)، وكلمة (ستارتم) إلى(صراط)، وهو ما يُعرف في اللغة باسم التعريب.

يقول الجوهري: التعريب هو أن تتكلم العرب بالكلمة على نهجها وأسلوبها، ومن هنا قول ابن جنّي في كتابه الخصائص: ما دخل في لغة العرب فهو كلامها، ويضرب على ذلك مثلا كقولهم (الجشكنان) ورفعناها بالضمة فصارت عربية، وقالوا عن درهم (دَرْهَمت الجنائن) أي صارت أوراقها مستديرة كالدراهم، وقالوا من (منجنيق): مَنجَقُونا،أي جنقونا بالمنجنيق، أي ضربونا، وجمعوا (مرزبان) على (مرازبة)، وكسرى على أكاسرة، وقيصر على قياصرة، ودهقان على دهاقين أو دهاقنة.

وقد اسهمت مجامع اللغة العربية في الاهتمام بالعامي والدخيل مما في اللغة، وأصدرت سلسلة من المقالات ثم الكتب والمعاجم التي توضب الكلمات العامية، وتسعى إلى لملمتها من ميادينها الشعبية، فكانت معجمات الكلمات العامية والدخيلة، وهي المعاجم التي اهتمت بالكلمات العامية التي تلفظ كما تلفظ الكلمات الفصحى، مثل قول (إنْتِ)، بدل (أنت)، (إجا) بدل (جاء)، (هِني) بدل (هنَّ)، (إجو،بدل: جاؤوا)، حيث يلحق كلاً منها التحريف اللفظي، كالشكل، إذ يُسكّن الحرف بدل تَحْرِيكِه، أو يُبدل حرف بحرف آخر.

وهناك تسميات كثيرة تسببت في جعل اللفظ الفصيح عاميًا، منها:

1- النحت، وهو استخراج كلمة من كلمتين أو أكثر، مثل: (ما أسرى) تصبح (مسرى)، (ماء الورد) تصبح (مَوَرْد)، (مَحْلاك) هي ما أحلاك، (ما أدري) تصبح مدري.

2- الزيادة والإضافة، مثل رشّ تصبح رشرش، شبّك: شربك.

3- الإبدال، أي استبدال حرف بحرف، مثل: بيضة: تصبح بيدة، هذا: هادا، طريق: تريق، منذر: منزر.

4- القلب، وهو تقليب الكلمة على أوجهها المختلفة، مثل: حفر: فحر، مسرح: مرسح.

## يتبع ←

[1] - ابن جني- المنصف، ج1 ص3، القاهرة 1954م؛ د. محمد قدوح، الكتابة، ص296، دار المنتقى، بيروت، ط2، 2002م.

[2] - المعجم الوسيط، مقدمة الجزء الأول، ص15-16، المكتبة الإسلامية؛ الموسوعات والمعاجم في الماضي والحاضر، ص131-137، دار رشاد برس، ط1،2003.

.

# تتمة مقال = اللهجات العامية

## ← مصادر اللغة العامية، المجلات والمعاجم

ولعل أهم مصدر لتصيّد اللهجات العامية هو مجلة (مجمع اللغة العربية بدمشق)، وقد اعتنت معاجم كثيرة بهذا اللون، فصدر معجم عطيه في العامّي والدخيل لصاحبه رشيد عطيه،في 523 صفحة من القطع الكبير،وقد طبعه عطيه في البرازيل (سان باولو)، سنة 1944م، ومن نماذج معجمه شرح لما يعرف بالعامي (أبو الرُّكَب).

يقول عطيه: أبو الركب هو مرض من الأمراض الوافدة،يسبب آلاما شديدة في الرأس والأعضاء، وتتخاذل معه الركب، فسموه كذلك من باب تسمية الشيء باسم ما ينشأ عنه، وقد عرّبه بعضهم بحمى الدَّنْك، بفتح الدال مشددة، وسكون النون، متوهمًا أن هذه اللفظة عربية، في حين أنها إنكليزية، وصورتها (Dengue)، أو اسبانية (دانجو)، مأخوذة على الأرجح من أصل هندي أو عربي وهو الضَنْك بفتح فسكون، فيسمى هذا المرض بالإنكليزية (Break-bone) أي المرض الذي يكسر العظم، وقد عرّب عطيه هذه الكلمة بـ(الزَّبخ)، بالراء المهملة المفتوحة، وهو الدوار، وربخه أضعفه، ورُنخ عليه: بالبناء للمجهول: اعتراه وهَن في عظامه، ولعل العرب أخذوا الرنخ من اللفظة الهندية (دنك)**[3]**.

ونحن نقول في العامية: رنّخوا، ورنّخثُ الشيء: وضعت الماء عليه مدة لتخفّ قساوته ويصبح رخوًا، وهذا قريب من معنى (الوهن)، وكما يقولون في (أبو الرُّكب) يقولون كذلك في أنفلونزا (Influense)، والمعلوم أنه في تتبّع الألفاظ التي تناولها العامة وشوّهوا كثيرًا منها حتى ضاعت أصولها الفصيحة، يجب العمل على كشف النقاب عن أصلها الفصيح، وقد وضع اللغوي أنيس فريحة معجم الألفاظ العامية في اللهجة اللبنانية، وقد جمعها من شوارد الألفاظ العامية، ثم سعى إلى تفسيرها وتحليلها، فتبين ان تلك الألفاظ تعود إلى اللغات السامية، وقد استعان فريحة بالقاموس المحيط للفيروز آبادي.

وقد حاول فريحة في معجمه ذكر الأصل الذي أُخذ منه إن كانت أعجمية، وإذا كان الفعل رباعيًا كان يرجعه إلى أصله الثلاثي أو إلى أصله الثنائي إذا وجد.

ومن شواهد فريحة، في حرف (الزاي)، زقزق الأمتعة: نقلها من مكان إلى آخر، وزقّ الأمتعة كذلك؛ وزَقَّت الرِّجل: زلقت؛ والزقّ:الوقوع إلى الأرض بسبب الانزلاق؛ وزقل الأمتعة: نقلها من مكان إلى آخر**[4]**.

ونقول بالعامية: (وأع زِق) أي وقع زقًا، والمعلوم أن فريحة في معجمه اقتصر على سكان قريته "رأس المتن".

وقد وضع اللغوي جبران جبور قاموس الجيب، الفصحى في العامية، وهو يحوي نقدا لغويًّا بحث فيه المؤلف أخطاء الأدباء اللغوية التي وردت في بعض الكتب المقرّرة للتدريس من قِبل وزارة التربية، وتمّ إنجاز هذا الكتاب في 31 آب 1943م، وقد رتّبه ترتيبًا هجائيًا، ومما ورد في هذا القاموس قوله: (بَتكه): قبض عليه فجذبه، والعامة تقول: (بتّك فيه)؛ (البجم) الجماعة الكثيرة، والعامة تستعملها لتحقير البشر**[5]**.

## الشعر الشعبي

ولعل أكبر مصدر للألفاظ العامية والدخيلة، وللهجات الشعبية، هو ديوان الشعر الزجلي الذي يسمى الشعر الشعبي، كما يمكننا أن نوضّب قاموسًا بالألفاظ العامية والشعبية والدخيلة من بطون دواوين شعراء الزجل في لبنان عامة، وجبل عامل خاصة، فليس في الشعر الزجلي محرمات لغوية في التصريف والاشتقاق، ويعطي الشاعر لنفسه الحق في استعمالات عامية مختلفة تشكّل جزءا محترمًا من ألفاظ الدواوين.

ومثالاً على ذلك: يجمع الشاعر عبد المنعم فقيه ابن عين قانا في قصيدة واحدة عنوانها (سوق الوُقيّة) مجموعة كبيرة من الألفاظ الدخيلة والعامية، ومما جاء في هذه القصيدة:

| | |
|---|---|
| يا أَلِف رِزْقَ الله عالوقية | وعا كَستك الساعة وصِدريه |
| ونَوَّاصة لِبْطَاقِة الدّاخُون | ويلْتِم الدِّخان عَينَيّ |
| وفستان يِتْنَهّد على الصابون | ذِيَالو من البِلان مِهريّه |
| وجِلد الغَنم مَفروش عَالرِّمعون | ومَسند ذُرى وقَعده طبيعيه |
| والنار شعلانة وثلج كانون | لَحَّن عالمزراب غِنيّه |
| ونْغَارة السَّمنة لِبْغَيْر دهون | بالسقف مشنوقة بكَفيّه |
| وشَلْعِة جَدايا ومَعصرة زيتون | مع جنب هَاكِ الجَلْ مِقْفيه |
| وطَحنة ثمَنْ تِمْدَاد عالطَّاحون | وعا كل مد ونصّ، تمنيه |
| وعَا مصطبة جِدي وعالغليون | وعِليّة وقداّحة وصاكِيّه |
| مع جنب رَبعَهْ نشَعِّل الطّيون | ونشوي الذُّرى والعيش حُريه |
| وبالمسكَبة في نَعنع وكَمّون | تمَشِّطْهُن الغَيمة السّماوية |
| والمِيجَانا وكلّ العيون عيون | التنور شمَلن سويه |
| وسلّة ومَعقلية وكرم مضمون | ومِسطاح تين يِلْم نُصِّيه |
| وعن هالدَّوالي نْكَحْكِش الحَسُّون | وبالكرم جَرْزِة دِبِق مِصليه**[6]** |

هذه القصيدة نموذج جلي وواضح للدلالة على مدى احتفاء الزجل بالألفاظ الدخيلة والعامية، أو هو صورة عن قاموس العامة ولهجاتها المحلية، فكلمات (الوقية، كستك، نواصة، البلان، الرمعون، كحكش، نعارة، شَلعة، مِد، تمنية، القصعة، الطيون) وسواها شائعة متداولة على ألسنة العامة، خاصة في جنوب لبنان، ولم يصدف أن استعمل أحدها في الشعر الفصيح لأنها لا تصلح لميادينه الإيقاعية وبحوره.

والواقع أن معظم قصائد "فقيه" الزجلية مزدحمة بالألفاظ العامية وبلهجات الضيعة اللبنانية، وهذا الذي دفعني إلى اختيار نماذج منها:

| | |
|---|---|
| حَدّي وشُوفي يا عَيني | عِطر وياقوت وزِيني |
| ومسعودي بِتِلِمّ قِصَاص | وجْلِيَبِيني وِقْرَيّني |

| | |
|---|---|
| مَحْلا غَيمِ الصّبح يطُم | المرج ويِكْشَح للراعي |
| ومَحْلا الجِدْيِهْ ومُحَلا الأم | تمعّي ومفهوم الداعي |
| ومَحلا مقَصّ الدَّالي يجم | بإيد الكَرَّام الواعي |
| وابن أختي يسرح ويلم | سكوكع ويشك جنيني**[7]** |

القصيدة العامية تشير إلى نفسها هنا.

هذا دأب جميع شعراء الزجل، ولذلك سمي شعرهم (الشعر الشعبي)، فلنستمع إلى الشاعر الكبير زين شعيب في بعض الأبيات تأكيدًا على المفهوم الذي أشرت إليه وذلك من قصيدة عنوانها (كيس طحين):

| | |
|---|---|
| بَيْ خمس ولاد بالضيعه فقير | شَغِلْتُو طرّاش معمرجي صغير |
| نادى على شريكة حياتو وقلّها | بعد عنّا طحين قالت مش كثير |
| تنهّد ونزلت دمعتو وقال | يا ربي افرجها على بَيْ العيال |
| جمّع تيابو، بَوّس ولادو ومشي | تيابو بيمينو والمهدَّي بالشمال**[8]** |

في كل ما ورد، إنك بمجرد أن تحوّل اللفظة الفصيحة إلى شكل جديد تكون قد عمّمته، أي أدخلته نطاق العامة.

يقول عبد المنعم فقيه:

| | |
|---|---|
| بُكرا وَرْدَات الْبِدّار | عا غيابو بيلوموني |

فلو حولنا هذا البيت من الشعر العامي إلى الفصيح نستطيع أن نقول:

| | |
|---|---|
| غدًا الوردات التي في الدار | على غيابه يلمنني |

ومن المصادر الأساسية للشعر العامي، الأغنيات الشعبية التي تكاثرت هذه الأيام، ودخلت صميم اللغات العامية، قال الشاعر مارون كرم من قصيدة مكاتيب:

| | | |
|---|---|---|
| كانوا بجارور خزانتك ضمي | | فيهن حكي من تِمّك وتِمّي |
| ولما عليك يطول غيابي | | تاخذي ورقة من كتابي |
| وفيها تصيري عالهدا تشمي**[9]** | | |

ثم لاحظ هذا التصغير العامي في هذه الأبيات للشاعر نفسه:

| | |
|---|---|
| يا بيتي يا بويتاتي | يا مسَتّر لي عويباتي |
| فيك خلقت وفيك ربيت | وفيك بربي وليداتي |

وهذا السيل من الألفاظ العامية في الأغنية نفسها:

| | | |
|---|---|---|
| وجدّي يعبّي الكْوَارة | | من الغلّة البالدوّارة |
| ويا عيني هاك الغلّي | | وحكاية أم بشارة |
| ست البيت الختيارة**[10]** | | |

الأمثال الشعبية:

ونضيف إلى ما سبق مصدرًا آخر يعبّر تعبيرًا واضحًا عن قاموس العامة اللغوي، وهو (الأمثال الشعبية العامية)، علمًا أن كثيرًا من هذه الأمثال يعود إلى أصل فصيح، إن لم يكن معظمها، وإليك بعضًا منها:

صوفتو حمرا: صوفته حمراء.

طب الجرة عاتما بتطلع البنت لأمّا.

إجِرْ لورا وإجر لقدام.

لا تقول فول تيصير بالمكيول.

انهزي بتنعزّي.

مثل الفواخرة لا دنيا ولا آخره.

كرمال عين تكرم مرجعيون.

المنحوس منحوس، ولو علقولو على بابو فانوس.

الحبل عالجرار

صاروا خوش بوش

قَدْ بساطك مد جريك.

| | |
|---|---|
| بالسياسة صاحبك لا تسألو<br>رزق العطايل للأصايل، والحمار | كل واحد عندنا إيدو إلو<br>اللي طَيْلَعو عَ الميذنة بينزلو**[11]** |

هذه نماذج قليلة مما في جعبة الزمن وقاموس الشعب من أمثال عامية متداولة.

إنها اللغة العامية، التي يرجع معظم مفرداتها إلى اللغة الفصحى، كما يظهر من النصوص التي وردت، وسنتبين ذلك أكثر إنشاء الله مما سيرد تباعًا في المعجم الذي سأعمل على إنجازه، راجيًا من الله العون والتسديد، كما أتمنى أن تكون صفحات هذه المجلة المباركة راعية لهذا العمل اللغوي.

---

[3] - رشيد عطيه، معجم عطيه في العامي والدخيل، ص 17، دار الطباعة والنشر العربية، سان باولو،البرازيل، 1944م. عبد المجيد الحر، المعاجم والمعجمات العربية، دار الفكرالعربي، ط1، 1994م، ص141-142.

[4] - عبد القادر المغربي، معجم الألفاظ العامية في اللهجة اللبنانية، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ك2 1940م،ج1، م23، ص120.

[5] - عبد المجيد الحر، المعاجم والمعجمات العربية، ص149.

[6] - عبد المنعم فقيه، الديوان، مخبا القمر، ص67و68،ج2، ط1، 1996م بيروت.

[7] - المصدر نفسه، ص168.

[8] - ديوان زين شعيب، ص359، لبنان، بيروت، ط1، نيسان 1996م.

[9] - مارون كرم، مروج الأغاني، ص111، مطبعة عزيز، جونيه، ط1 1998م.

[10] - المصدر نفسه، ص94.

[11] - سلام الراسي، اقعد أعوج إحكي جالس، ص54، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان.

## الهوامش

* أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية في صيدا.

# أضواء على طبيعة الخط العربي

د. محمد إسماعيل بغدادي

## أضواء خاطفة على طبيعة الخط العربي

## ونشوئه وتطوّره

د. محمد إسماعيل بغدادي[1]

تُعدُّ كتابة الخط من الفنون الصعبة التي هي بحاجة شديدة إلى المهارة الفائقة والموهبة والدراسة والتحصيل والممارسة والتدريب، ولذلك فالخطّاط الماهر يحتاج إلى ساعاتِ عمل طويلة يوميًا لتجويد خطّه، وتحسين مستوى أدائه الفني، لدرجة أنه لا يستطيع أن يتوقّف يومًا واحدًا عن مزاولة مهنته المحبّبة إلى نفسه، وهو في كل يوم، بل في كل لحظة تخطر في باله بعض الأقوال والعبارات أو أبيات من الشعر أو ما عداها، فيرغب في كتابتها والاجتهاد في إنجاز أدائها الفنّي على أكمل وجه.

وتروي كتب التاريخ والفنّ، رواية مشهورة، عن الخطّاط التركي الحافظ عثمان -الذي كتب المصحف الشريف عدة مرات متتالية قوله في هذا الصدد: "لو عُرِضَت عليّ الخطوط المختلفة التي أكتبها طوال الأسبوع، لعرفت بحاستي الفنّية من بينها خطوط يوم السبت، لأنها تكون أقلّ مرونة من خطوط بقية أيام الأسبوع بسبب توقفي عن الكتابة يوم الجمعة".

وهذا يصوِّر مدى إجادته حذق هذا الفن والمهارة الفائقة في معرفة الفروق بين الخطوط، والأوقات التي تتم فيها عملية الولادة الفنيّة.

الخطّ العربي فنّ من الفنون الجميلة، بَرَع فيه أجدادنا، زينّوا بلوحاته جدران منازلهم وقصورهم، فضلاً عن جدران المساجد، فأسبغوا عليها روعة وجمالاً.

ولقد عبّر الخط العربي خلال مساره الطويل عن ملامح الحضارة العربية والإسلامية، فكان كالكائن الحيّ ينمو ويترعرع ويتجدّد باستمرار.

### طبيعة هذا الخط

الخطّ عِلم، لأنه يعتمد على أصول ثابتة وقواعد دقيقة، تستند إلى موازين وضعها الأقدمون.

والخطّ فنّ، لأن محوره الجمال في التعبير، يتوخّاه ويهدف إليه، كما يتطلّب استعدادًا فنيًا، يقوم على دقة الملاحظة والانتباه والقدرة على المحاكاة، وهي أمور صميمية في الفنّ، ومما يلاحظ أن التعبير في هذا الفنّ يختلف من خطّاط لآخر، حتى أنه يختلف عند الخطّاط الواحد من فترة لأخرى، نظرًا لتغيّر الانطباعات النفسية والمشاعر.

والخطّ فلسفة، لأنه لكل نوع من أنواعه فلسفة خاصة، عبّرت عن فلسفة مجتمعها وطبيعته، ففي الخط الكوفي -الذي كان يُكتب به في العصر الجاهلي- نلاحظ خطوطًا مستقيمة وقاسية، عبّرت عن قسوة الحياة الجاهلية القديمة.

وفي الخطّ الثلثي في العصر العباسي، نلاحظ تعقيدًا في الحروف، وجمالاً في الشكل، تتلاءم مع أحوال العصر العباسي بما فيه من تعقيدات الحياة وروعة الحضارة.

وفي اختراع الخطين "الرقعي" و"الديواني" في العصر العثماني، نلاحظ ضرورات اجتماعية تمثّلت في الوضوح والسرعة، الأمر الذي دعا لهذين النوعين، فجاءا معبّرين عن فلسفة اجتماعية معيّنة**[1]**.

## الخط العربي والفنون التشكيلية

استحقّ الخطّ العربي أن يحتلّ مكانة سامقة في سلّم الفنون التشكيلية على الصعيدين العربي والعالمي، وأن يلفت أنظار عمالقة الفنّ والرسم في الغرب، وأن يحظى بمتابعةٍ وحضورٍ داخل أروقة المعارض الدولية.

ولكن الواقع العربي - مع شديد الأسف- يشهد انحسارًا لرقعة الخطّ العربي في الذهنية العربية بوجه عام، وفي خيال ووجدان الناشئة على وجه الخصوص.

ومن ثَمّ فإن المكتبة العربية تعاني نقصًا شديدًا في الكتب والمراجع التي تتناول الفنّ العربي بالدرس والمتابعة والتمحيص والتحليل والتأريخ، ولهذا فإن الخطّ العربي جسدّها - بعمق - في لوحات ومخطوطات تحمل سمات الفن العالمي والروح الشرقية، صافية النقاء أيضًا، بخلاف الواقع الراهن الذي يطبع نفسه بطابع إهمال جماليات الخطّ العربي.

## أثر الإسلام في تطوّر الخط العربي

من المؤكد أنه كان للدين الإسلامي أكبر الأثر في تطوير الخطّ العربي، حيث إن القرآن الكريم قد دُوِّنَ به وانتشر بواسطته، وكذلك الأحاديث النبوية، فأصبح يحمل قدرًا من القداسة عند كل عربي ومسلم.

كذلك، فإنّ لانتشار الإسلام في مشرق الأرض ومغربها، ودخول أقوام كثيرة فيه، وسعي كل قوم وكل قطر إلى أن يميِّز نفسه بخطّ معين، فضلاً كبيرًا في وفرة أنواع الخطوط وغنى الأساليب التشكيلية**[2]**.

ولا ننسى ما للفنّان المسلم المتديّن من باع في هذا المجال، إذ نراه يُفرغ أقصى ما لديه من تجليّات الروح على خطوطه، فيبدع أيما إبداع، ولذلك نجد لفظة الجلالة أو البسملة يتسابق الخطّاطون في كتابتها بما لا يخطر على بال من الأشكال والإبداعات الخطّية، وقد وقع نظري على كتابٍ تركي قد جمع بين دفتيه مئات من أشكال الخطّ المتنوعة لكتابة البسملة وقد سمّاه المؤلف بحديقة البسملة (The Garden Of Besmelah).

ولا غروَ أن اهتم الفنّان المسلم بما حضّ عليه القرآن والأحاديث بشكل متواتر، وكأنّ في انتشار التأييد الواسع للخطّ وللكتابة ما يعوِّض عن اتجاهٍ بات معروفًا عند الإسلام وهو يتمثّل بكراهة الرسم والنحت، لا بل بالتحريم أحيانًا، ومهما يكن من أمرِ الأحاديث المتواترة حول هذا الموضوع وما فيها أحيانًا من مغالطات أو بُعدٍ عن الدقة، فإن الإسلام نهى بالإجمال عن الرسم الذي يقارب أشكال الأصنام**[3]**.

## اقرأ باسم ربك الذي خلق

هكذا بدأ التنزيل يُنبئ عن منزلة القلم عند الله وعن منزلة ما يكتب بالقلم، **{اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[4]**.

ويروى أن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) مرّ يومًا برجل يكتب المصاحف فقال: (أجلل قلمك)، فقصم منه قصمة ثم كتب، فقال علي (عليه السلام): نعم هكذا، نوِّره كما نوَّره الله**[5]**.

وروي كذلك أنه قال: (الخطّ الحَسن يزيد الحقّ وضوحًا)**[6]**.

نسب إلى ابن عباس أنه فسّر إثارة العلم بأنها الخطّ**[7]**.

ونسب إليه أيضًا: الخطّ لسان اليد، وبهجة الضمير، وسفير العقول، ووصي الفكر، وسلاح المعرفة**[8]**.

وقد أوصى عبد الحميد الكاتب الكتّاب في رسالته الشهيرة إليهم فقال:

وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل، والفرائض، ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخطّ فإنه حلية كتبكم**[9]**.

وقال في مكان آخر: القلم شجر ثمرته اللفظ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة، والبلاغة منهل فيه ريّ العقول الظامئة، والخطّ حديقة زهرتها الفوائد البالغة**[10]**.

كان المتأخرون يرجعون بسلسلة مُعلّميهم إلى معلّم للخطّ واحد، منه اقتبسوا الخطّ وعنه أخذوا أصوله الأولى، ولم يكن هذا المُعلّم سوى الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) **[11]**.

وقد دوّن لنا غير مصدر عربي ما كان للإمام عليّ (عليه السلام) من فضل في تعليم الخط، فهو يأمر بقطّ القلم قطّة جليلة، - كما سبق القول - وروي أنه قال لعبيد الله بن أبي رافع، وهو أحد الخطاطين في زمانه: (يا عبيد الله أَلِقْ دواتك، وأَطِلْ سِنَّ قلمك، وفَرِّج بين سطورك، وقرمِط حروفك، والزَم الاستواء**[12]**.

ولا يستغربنّ أحد ما للإمام علي (عليه السلام) من فضل في نشر كثير من العلوم، والرسول (صلى الله عليه وآله) قال فيه: (أنا مدينة العلم وعلي بابها).

**يتبع ←**

[1] - معروف زريق، كيف نعلّم الخط العربي، دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع، ط1، 1405هـ، ص12.

[2] - يوسف غريب، تجليات الخط العربي، مجلة الفنون الكويتية، عدد أيار السنة السادسة 2006م، ص36.

[3] - أسعد سكاف، الخط العربي وتطوّر الجمال فيه، مجلة الأبحاث التربوية، تصدر عن كلية التربية، الجامعة اللبنانية، بيروت، السنة الخامسة عشرة، عدد 19/1994.

النص بالإنجيليزية بترجمتي الشخصية، ص19.

[4] - سورة العلق، الآيات:3 إلى 5

[5] - أبو حيان علي بن محمد التوحيدي، رسالة في علم الكتابة، ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي، تحقيق إبراهيم الكيلاني، دمشق، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، 1951م، ص46.

[6] - أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج3،القاهرة، دار الكتب الخديوية، 1332هـ-1914م، ص24

[7] - القلقشندي، صبح الأعشى،ج3 ص5.

[8] - المصدر السابق، ج3، ص6.

[9] - راجع هذه الرسالة في عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج1،المقدمة، القاهرة، المكتبة التجارية، ص248-249.

[10] - التوحيدي، رسالة في علم الكتابة، ص39.

[11] - محمد طاهر بن عبد القادر الكردي، تاريخ الخط العربي وآدابه، القاهرة، مكتبة الهلال، 1358هـ، 1939م، ص211-216.

[12] - التوحيدي، رسالة في علم الكتابة، ص46.

.

## تتمة مقال = أضواء خاطفة على طبيعة الخط العربي

### ← المسار التاريخي للخط

لا بد في هذه العجالة أن نسلّط الضوء ولو بشكل سريع على نشوء الخطّ وأماكن انتشاره وأنواعه، وتجدر الإشارة إلى أن هناك روايات تشير إلى أن الخطّ العربي كان معروفًا قبل الإسلام عند المناذرة واللخميين بالحيرة، وعند الغساسنة بتخوم الشام، وكذلك عند القرشيين بمكة**[13]**، والأوس والخزرج واليهود بالمدينة **[14]**، والبحث في المراحل التاريخية لتطّور الخطّ ليس أمرًا هيّنًا، وذلك لندرة النقوش العربية قبل عصر النبوة**[15]**

### الخطّ من الناحية التاريخية

مرّت الكتابة بمراحل رئيسة خمس:

1 - مرحلة الصورة، وقد تمثّلت في أربعة أنواع من الخطوط: الهروغليفية (مصر)، الحثيّة (بلاد الشام)، الصيني (الآشوري الذي تحوّل إلى الخطّ المسماري).

2 - مرحلة الرمز، باستنباط صورة ترمز إلى معنى ما.

3 - مرحلة المقطع، وتمثّلت بالانتقال من الرسم إلى اللغة.

4 - مرحلة الصوت، حيث انفصل المقطع إلى حرفين.

5 - المرحلة الهجائية.

### من أين جاء الحرف العربي

اختلف العلماء في أصل الحرف العربي اختلافات شتّى، والأرجح رجوع الفضل في انتقال الكتابات القديمة إلى مرحلة الحرف، للدولة الفينيقية، ثم تفرّعت الحروف الفينيقية إلى أربعة فروع: الآرامية - اليونانية - الحِميَرية - العبرية.

ثم تفرّع الآرامي إلى ستة فروع: التَّدمُري - الهندي - الفارسي - الفهلوي - العبري المربع - والسرياني.

ثم نشأ من الخط السرياني خطان، وهما: الخط الحِميَري والخط النبطي.

ثم تفرّع الخط النبطي إلى الخط العربي.

وهكذا أخذ العرب خطّهم عن الأنباط، والأنباط عرب كانوا يسكنون شمالي الجزيرة العربية (في فلسطين والأردن) وكانت عاصمتهم البتراء**[16]**.

لكن هناك رأيًا يميل إلى الأصل السرياني للخطّ، إلا أن الخط العربي لم يتأثّر أو يُقتطع من الخطّ السرياني على ما فيهما من فروق أو تشابه**[17]**.

عرف العرب في بداية الإسلام نوعين من الخطوط: الحجازي والكوفي.

الحجازي وكان يستعمل في الكتابات اليومية، ويكاد يكون أصلاً للخطّ النسخي.

أما الكوفي فقد ظهر بمنطقة الكوفة، فنسب إليها، وهو أساس الخطوط العربية كلها.

## الخطّ في العصر الأموي

أخذ الخط العربي يسمو ويرتقي مع العصر الأموي، وقد تميّز هذا العصر بإصلاحات مهمّة على صعيد الخطّ واللغة، شملت الشكل والإعجام، فوُضعت حركات الإعراب الأولى عام 45 هـ، بعد ما كان الخط العربي خاليًا من الشكل لعدم حاجة العرب إلى الضوابط الشكلية، وذلك عن طريق أبي الأسود الدؤلي - الذي وضع القواعد الأساسية للنحو العربي بتكليف من الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)- واستكملت أشكالها الحاليّة على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي.

ثم وضع الإعجام عام 80 هـ بعدما كانت الحروف خالية من التنقيط مما كان يؤدي إلى التصحيف أحيانًا.

شجّع الخلفاء الأمويون الخطّاطين وقرّبوهم، حتى ظهر منهم خطاطون كبار، مثل الخطّاط قطبة المحرّر الذي استنبط من الخطّين الحجازي والكوفي نوعًا جديدًا هو الخط (الجليل)، ثم خطّ (الطومار)، واخترع قطبة خط الثلث والثلثين.

## الخطّ في العصر العباسي

اشتهر في أوائل العصر العباسي في العراق رجلان، وانتهت إليهما الرئاسة في جودة الخط، وهما: الضحاك بن عجلان وإسحاق بن حماد، وفي عهدهما بلغت الخطوط العربية أحد عشر نوعًا.

ظهر في هذا العصر عدد كبير من الخطّاطين، إلا أن جودة الخط انتهت إلى عميد الخطّ في الكتابة العربية، الوزير أبي علي بن محمد بن مقلة، وهو أول من قرّر للخطّ معايير يُضبط بها، وأصبح مضرب المثل في الخطّ الحسن، وقد قيل لأحدهم: ما تقول في خطّ ابن مقلة؟ قال: ذاك نبيّ فيه، أُفرغ الخطّ في يده، كما أُوحيَ إلى النحل في

تسديس بيوته.

ثم اشتهر في العراق رئيس الخطّاطين علي بن هلال المعروف بابن البواب وهو الذي أكمل قواعد الخطّ وهندسته.

ثم جاء ياقوت المستعصمي الذي فاق الأولين، وكان ذلك في آخر عهد العباسيين، وقد بلغت أنواع الخطّ في هذا العصر ثمانين نوعًا.

ثم تلاشت تلك الخطوط ولم يبقَ منها سوى الأنواع التي وصلت إلينا مما خلّفه مَهَرة الكتّاب واحتفظت به المتاحف.

وفي عهد الدولة الفاطمية عني الفاطميون بالخطّ عناية كبيرة، حتى نافسوا العباسيين في بغداد.

## العصر الذهبي للخطّ في عهد الأتراك

بعد زوال دولة المماليك بمصر، آلت الخلافة إلى الدولة العثمانية، وقد ورث العثمانيون بقايا التمدّن الإسلامي فاعتنوا بالخطّ اعتناءً منقطع النظير، حيث استقدموا من بلاد إيران عددًا من أعلام الخطّ وتعلّموا على أيديهم خط النسخ وخطّ الثلث، فأتقنوهما إتقانًا لا مزيد عليه وبلغوا بهما ذروة الفن، حتى أصبحت استانبول كعبةَ فنّ الخطّ بلا منازع.

أما الخطوط التي بقيت في العصر الحاضر فهي سبعة:

الكوفي - النسخ - الثلث - نستعليق "الفارسي"**[1]** - الديواني "الهمايوني" - والجلي الإجازة - الرقعة، بالإضافة إلى خط الطغراء الذي يعتبر خطًا زخرفيًا تقتصر كتابته على التواقيع والعناوين.

وسنحاول أن نقدّم نماذج خطية لهذه الأنواع بالقلم العادي، ثم نتبعها بنماذج خطية نموذجيّة.

# نماذج من الخط







خط الطغراء




[13] - د. صلاح الدين المنجد، دراسات في تاريخ الخط العربي، منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، دار الكتاب الجديد، 1972م، ص23.

[14] - عبد العزيز الدالي، الخطاطة الكتابية العربية، مكتبة الخانجي، مصر، 1400هـ، ص3.

[15] - د. محمد يوسف صديق، الخط العربي وأثره الحضاري، مجلة الجامعة الإسلامية، تصدر عن الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية، لندن، عدد 2، 1994م، ص175.

[16] - معروف زريق، كيف نعلّم الخط العربي، ص23.

[17] - الدكتور المنجد، ص 12.

[1] - نستعليق: كلمة مركبة من كلمتين، هما: (نسخ) و(تعليق).

# مخطوطات العامليين

الشيخ محمد تقي محمد جواد الفقيه

## في مكتبة الإمام الصادق (عليه السلام) -في قزوين

الشيخ محمد تقي الشيخ محمد جواد الفقيه *

من المكتبات المعروفة في الجمهورية الإسلامية في إيران، مكتبة الإمام الصادق (عليه السلام) في مدينة قزوين، وقد أحصيتُ - فيما يلي - مخطوطات العامليين المذكورة في الجزء الأول من فهرست هذه المكتبة، ولم يتوفّر لديّ الجزء الثاني منه حتى الآن.

وقبل أن أذكر ما وجدته في الجزء الأول، أشير إلى أن الرقم المُثبت أمام اسم الكتاب هو رقم عنوان الكتاب وليس رقم المجلد، فعلى سبيل المثال: (مسالك الأفهام) رقمه في المكتبة 199، وهذا يعني أن كل نسخة من النسخ الاثنتي عشرة من مسالك الأفهام تحمل هذا الرقم.

## أسماء المخطوطات

(1): **الأربعون حديثاً** (6): للشيخ البهائي. حديث (عربي). غير مؤرخ.

(2): **البيان** (30): للشهيد الأول. فقه (عربي). نسخ في القرن العاشر.

(3): **جامع المقاصد** (59): للمحقق الكركي. فقه (عربي). نسختان إحداهما نسخت في القرن العاشر والأخرى غير مؤرخة.

(4): **الدر المنظوم من كلام المعصوم** (95): لحفيد صاحب المعالم الشيخ علي بن محمد العاملي. حديث (عربي)، نسخت في عصر المؤلف. بلا تاريخ.

(5): **ذكرى الشيعة في أحكام الشريعة** (99). للشهيد الأول. فقه (عربي). نسختان, الأولى نسخت سنة 1235هـ، والثانية غير مؤرخة.

(6): **روض الجنان في شرح إرشاد الأذهان** (107): للشهيد الثاني. فقه (عربي). نسخة واحدة غير مؤرخة.

(7): **الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية** (108): للشهيد الثاني. فقه (عربي).

توجد منها 12 نسخة أكثرها نسخت في القرن الثالث عشر، وواحدة في القرن الحادي عشر وبعضها غير مؤرخ.

(8): **عقود الدرر في حل أبيات المطول والمختصر** (147). للحسين بن شهاب الدين الشامي العاملي. بلاغة (عربي) نسخت سنة 1222.

(9): **الفصول المهمة في أصول الأئمة** (155). للشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي. حديث (عربي). نسخت سنة 1232.

(10): **مدارك الأحكام في شرح شرايع الإسلام** (196). للسيد محمد الموسوي العاملي. فقه (عربي). 3 نسخ واحدة غير مؤرخة واثنتان مؤرختان بتاريخ: 1231. و 1060.

(11): **مسالك الأفهام في شرح شرائع الإسلام** (199). للشهيد الثاني. فقه (عربي). توجد 10 مجلدات بتواريخ متفاوتة بين القرن العاشر والقرن الثاني عشر، وبعضها بلا تاريخ.

(12): **معالم الأصول** (213) و (1/316). للشيخ حسن بن الشهيد الثاني. أصول فقه (عربي). ثلاث نسخ أرخت في القرن 13 إحداها ضمن مجموعة رقم (316).

(13): **مفتاح الكرامة في شرح قواعد العلّامة** (222). للسيد محمد جواد الشقراوي العاملي. فقه (عربي). 3 نسخ واحدة مؤرخة في سنة 1253 والباقي بلا تاريخ.

(14): **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة** (249). للشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي. حديث (عربي). نسخت قبل سنة 1118.

(15): **الألفية** (3/256). للشهيد الأول. فقه (عربي). بتاريخ 1128.

(16): **بداية الهداية** (5/256). للشهيد الثاني. دراية (عربي). بتاريخ 1128.

(17): **المسائل الفقهية** (3/265). للشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي. فقه (عربي). نسخت سنة 1112.

(18): **الفوائد الصمدية** (4/274) و(1/317). للشيخ البهائي. نحو (عربي). نسختان، إحداهما بلا تاريخ والأخرى بتاريخ 1240.

(19): **الوجيزة** (1/280). للشيخ البهائي. دراية (عربي). نسخة واحدة بتاريخ 1264.

(20): **الإثنى عشرية في الصلاة** (1/287). للشيخ البهائي. فقه (عربي). نسخة واحدة بتاريخ 1028.

(21): **خلاصة الحساب** (1/300). للشيخ البهائي. رياضيات (عربي). نسخة واحدة بتاريخ 1250.

## الهوامش

* مدير مركز الفقيه العاملي لإحياء التراث، مقيم في قم المقدسة.

# رسالة النجف — العدد التاسع

جامعة النجف الأشرف للعلوم الدينية · http://127.0.0.1:8000

جميع الحقوق محفوظة